

المسرح هو المدرسة الأولى لفن التمثيل الذي يتلقى فيه الفنان أصول هذا الفن الجميل ويتعلم من خلاله قواعد هذه الحرفة وخفاياها وما يحتاجه من أسس ترسم ملامح شخصيته وتكسبه أداءً حسناً وإلقاءً جيداً.

هذه المقولة لا يختلف فيها اثنان.. ومن خلال التأمل في كبار الفنانين والمشاهير نجد أنهم جميعاً تخرجوا من هذه المدرسة بعد أن أمضوا فيها سنواتٍ طويلةٍ تدريباً وعملاً.

فالممثل المسرحي يستطيع الخوض في كافة ميادين التمثيل الأخرى بنجاح وتفوق.. والعكس ليس صحيحاً مقنعاً بدون أخطاء، وأن يرتقي أداء الممثلين بالمستوى اللازم والتواصل المطلوب مجسدين بذلك الرؤية الإخراجية الصحيحة ليكون العمل ناجحاً ويحقق الغاية المنشودة منه.. هذه الإمكانيات، وتلك القدرات، لا يحتاجها الممثل في السينما أو التلفزيون لوجود التقنيات الفنية والوسائل المتطورة في عمليات التصوير والمونتاج وغيرها، مما يجزئ ويسهل العمل.

بعد هذه المقدمة المطولة نتساءل جميعاً:

لماذا تراجع المسرح وبات نشاطه قليلاً..؟؟

لماذا تغيبت الفرق المسرحية الواحدة تلو الأخرى..؟؟

لمــاذا صــار المسَرح وكأنه (موضة) قديمــة لـم تعـد تناسـب هـذا الزمان وهذا الجيل..؟؟

تمــر الشهور ولا تجد عرضاً مسرحياً يقدم.. وعندما تنحل العقدة وتنفرج وتبدأ إحدى الفــرق المسرحية بعروضها، تفاجأ أن نصف مقــاعد الصالة خاوية من الحضور إذا لم نقل أكثرها..!!

باســتثناء بعض العروض التي يكون لهــا لــون معيــن تجعل الجمهور يقبل عليها مســرعاً متشــوقاً .. والســؤال الآن ما الذي أوصل مسرحنا إلى هذا الحال..؟؟

عــدد من الممثلين يقول: إن المسرح وارده قـليل لا يكــاد يغطــي تكاليف ونفقات العرض المسرحي، وأن الممثل لا يتقاضى عن الفترة الطويلة التي تمتد أحياناً إلى ثلاثة أشهر مــن التدريبات والعروض.. إلا مبلغاً ضئيلاً لا يذكــر، فــي حين أن العمل في تصوير بعض المشاهد في مسلسل تلفزيوني مثلاً، يقابل أجر مغر...

فــئة أخــرى لها وجهة نظر مختلفة، غيــر الأجور.. وهي أن العمل التلفزيوني أكثر نجوميــة وأوســع شــهرة خاصة بعد انتشار الفضــائيات وتسويق الأعمال التلفزيونية إليها عــبر آلاف الكيلومــترات لتشــاهد مــن قبل الملاييــن، فــي حين أن المسرحية قد لا تغادر حدود المدينة.

وثمــة رأي آخــر لــبعض الممثــلين والمخــرجين هو أن المشكلة تكمن في النص المســرحي الجيد الذي بات نادراً وربما مفقوداً في الأيام، حيث توجه معظم الكتاب والمؤلفين إلى الكــتابة للتلفزيون بالدرجة الأولى لتحقيق متنفسهم المادي فيه.

أيضــا هــناك مــن يقول إن المسارح عــندنا باتت قديمة وهي مجهزة بأدنى حد من التقــنيات اللازمــة.. ولا تناسب الأعمال التي صــارت مطلوبة في هذه الأيام، أي أنها لم تعد تفــي بالغرض وبحاجة إلى تحديث وتطوير بما يــتلاءم مع العروض الكبيرة التي يفكر البعض في تقديمها ليعيد للمسرح مجده الغائب.

وبيــن تــلك الآراء المطروحة يعيش المســرح فــي سـبات وغفوة ولا يعرف متى يصحو منها..!! أمام هذه الإشكاليات، ووجهات الــنظر مــاذا يمكن أن نقول؟؟ وماذا يمكن أن نعمل؟

مــن المؤكــد أنــه يجب علينا جميعا أن نفكــر فــي الحــلول الــتي تعيد للمسرح مجــده وتألقــه، ليعــود التواصــل بينه وبين جمهوره..

والــبداية تكون في النص حينما يتجه كتابــنا و مبدعيــنا نحــو قضــايانا المعاصرة وحياتــنا اليوميــة فيغوصوا في ثناياها لكتابة نصــوص تعــالج همومنا، وتلقي الضوء على مشــاكلنا، وتقدم الحلول اللازمة لها مستفيدين مــن تجــارب الآخــرين بما يتلاءم مع واقعنا وبيئتــنا، فــنحن بحاجة إلى أعمال تكون جزءً من ذاتنا وتعبر عما يعتلج في صدورنا وتتوق إليه نفوسنا.

بعدهـا يأتي دور الممثلين والمخرجين فـي اخـتيار الأعمـال الـتي تناسب مجتمعنا بشـرائحه المـتعددة وتلبي حاجاته وتطلعاته، لـتقدم لـه المـادة الـتي تلامس أحاسيسه ومشـاعره، وتغذي روحه وتعود عليه بالفائدة والمـتعة، في زمن تكثر فيه النصوص الباهتة والأعمـال الرديـئة الـتي تفسد ذوق المتلقي وتتركه في حيرة لا يعرف بعدها ماذا يريد..؟؟

كـل هـذا يجـب أن ينال من فنانينا اهـتماماً كبيراً، واعتناءً واسعاً قبل الدخول في الاعتـبارات الأخـرى، كالنظرة المادية مثلاً.. والـتي لا نـنكر أهميـتها في هذه الأيام أمام ضـغوطات الحيـاة المعيشية والمكانة اللائقة بفنانيـنا الذين أفنوا عمرهم وحياتهم في خدمة هذا الفن.. لكن ما نريد قوله:

أنـنا نـأمل ونحلم بأن نرى فناً نظيفاً نرتقي به فوق الكثير مما يعرض من أعمال لا نعرف كيف يتقبلها بعض المشاهدين أو يعجبوا بها.

أمـا بالنسـبة لـلجهات والإدارات المسـؤولة عـن المسارح، والهيئات الرسمية المختصـة فعـليها أن تولي مسارحنا وفرقنا المسـرحية الاهـتمام الأكبر وتقدم لها الدعم الـلازم لـتطوير هـذه المسـارح وتحديـثها وتجهيـزها بالمعدات والأدوات المتطورة التي تخـدم أعمالـنا وتـرتقي بفننا وتفتح الآفاق لفنانينا لتقديم أعمال كبيرة يحلمون بها. لكنهم يفتقدون المكان المناسب لها..!!

ثـم يـأتي دور وسـائل الإعلام في إيصـال الأعمال الجيدة والهادفة إلى الجماهير التي تعنى وتهتم بمتابعة النشاطات المسرحية، بعـد أن تكـون الفرق المعنية قد أدت واجبها وقـامت بالدعايـة الكافية لعملها.. فالكثير من الأعمال الجادة والناجحة قدمت بصمت دون أن يدري بها أحد بسبب غياب الدعاية اللازمة لها والكفيـلة بإيصـال أخبار العروض ونشاطاتها بالشـكل الأمـثل الـذي يحقق إقبالاً جماهيرياً واسعاً يتناسب وقيمة العمل ونجاحه.

وعليـنا أن لا ننسـى دور الـناقد المسـرحي ونقده البناء الذي يتجرد من خلاله عـن التميز والعاطفة وأن يضع لنا النقاط على الحـروف بصدق وأمانة فيوضح ما غاب عنا ويشـرح ما لم يتم فهمه، فتكتمل لدينا الرؤية الصحيحة لأعمالنا..

وبعـد أن تتضافر كافة الجهود لإيجاد أعمال نظيفة ذات مستوى رفيع متميز، وتقديم كافـة الإمكانيـات والخـبرات المـتاحة لهذه الأعمال..

هـل نجد ذلك المشاهد الذي يقدر هذا الفن..؟؟

وهل نجد الجمهور الذي يقبل بحرارة واندفـاع عـلى العروض المسرحية، وينصف جهد وتعب الكثيرين ممن يقفون وراء كل عمل ناجح..؟؟

سـواءً أكانوا على خشبة المسرح أو من خلف الكواليس..!!؟؟




أياديك تبقى..

شعر: الياس قطريب

إلى الأستاذ الأديب مدحة عكاش..

زرعتَ الدروب منارات عشق
وعشتَ تغنّي الهوى والجمالْ

تحلّق عبر سماء القريض
فينداح أفق ويرقى خيالْ

عرفتك في الليل صبّاً ولوعاً
تهيم مع الحسن في كلّ حالْ

يغاويكَ وجه - ويا حسنه -
فتهفو إليه وتبدي انشغالْ

ويدعوكَ ثغر - ويا مشتهاه -
فتنهد شوقاً ترجّي النوّالْ

فكم لوّعتك الصبايا زمانا
وكم ألهمتك بديع المقالْ

عرفتُ (الثقافة) واحة فكر
إليها النفوس تشدّ الرحالْ

فكم برعم مثقل بالجنى
تفتّح في ظلّها واستطالْ

وكم زهرة كامن عطرها
تضوّع في روضها باختيالْ

وكنتَ - ومازلتَ - تلقى الجميع
بصدر رحيب وراحة بالْ

أياديكَ تبقى أمارات خلق
رفيع الشمائل حلو الخصالْ




رحيل العالم الجيولوجي الدكتور زهير الشايب

بقلم: أ. عيسى فتوح

في الرابع من نيسان ٢٠٠٤ خطفت يد المنون في ولاية أوكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية، العالم الجيولوجي الدكتور زهير الشايب، النجل الأكبر للأديب الكبير المرحوم فؤاد الشايب (١٩١١-١٩٧٠) وشقيق الدكتور عصام، والأديبة الشاعرة إقبال الشايب غانم، وهو لم يتجاوز عامه الثاني والستين، بعد صراع مرير مع المرض الخبيث الذي لازمه قرابة عام كامل.

ولد الدكتور زهير في دمشق عام ١٩٤٠، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية فيها رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص في الجيولوجيا والتنقيب عن النفط، وأمضى حياته هناك في المختبرات مترهباً باحثاً، وقد اعترف العالم كله باكتشافاته وأبحاثه، وكان أحد العلماء العشرة الأوائل في العالم الذي كُرموا عام ٢٠٠٣ في ولاية أوكلاهوما، ونال جوائز عديدة منها جائزة أفضل أكاديمي وباحث، وجائزة جامعة برلنغتون سيغما، وجائزة نساء ورجال العلم، وجائزة PHIKAPPA وجائزة أفضل بروفسور في براون ومونيه وغيرها من الجوائز القيمة التي يفخر بها العالم العربي، لأن الدكتور زهير الشايب من أصل عربي، وقد شغل مناصب عديدة في جامعات الولايات المتحدة، كان آخرها عميد كلية الجيولوجيا في جامعة أوكلاهوما، وقد دُعي إلى أرقى وأعلى المنابر في العالم الغربي من أمريكا وفرنسا وبريطانيا وسويسرا وبلجيكا وغيرها، وحاضر حول الطبيعة الجيولوجية للصخور والأتربة والحجارة الكربونية وأسباب الزلازل ومخزونات النفط في العالم.. وقد استُعين مؤخراً بخبراته في مجال النفط والغاز في

سورية وفي الخليج العربي وله منشورات عديدة حول النفط والعواصف الرملية والصخور الكربونية والمنابع الغازية.. وله اكتشافات مسجلة وأبحاث رائدة وكل المعلومات تحت تصرف الباحثين على الأنترنت – غوغل – دكتور زهير الشايب al shaieb Zuhair.

وله مؤلفات ضخمة في مجال اختصاصه تدرس في جامعات العالم (٦٠ مؤلفاً) درّس مادة الهندسة الجيولوجية البترولية وذلك قرابة ٣٤ عاماً وتخرج على يديه الكثير من المهندسين الحائزين على شهادات الماجستير والدكتوراه في مجالات الاكتشافات النفطية وتقدير كمياتها في حقول النفط والكثير منهم يحتلون مراكز رفيعة في شركات البترول الأمريكية والعالمية وكانت تستعين شركات النفط العاملة في أمريكا والعالم العربي بخبرات الدكتور زهير الشايب الفنية في حل الكثير من المشاكل والأمور الهامة بشأن النفط بالإضافة إلى كونه خبيراً معتمداً لدى المحاكم والهيئات الأمريكية بما يتعلق باختصاصه.

وقد كرم بتاريخ ١٣ شباط ٢٠٠٢ في مدينة هيوستن على مدرج جورج براون الفخم بحضور حوالي ثلاثين ألف شخص ينتمون إلى هيئة النفط والجيولوجيا الأمريكية وكان من بين ١٥ شخصاً في العالم وحاز على جائزة في مجال التعليم العالي في الهندسة البتروجيولوجية.. aapg اسم الجائزة العالمية.

وإذا أردنا أن نتكلم عن أخلاقه المتواضعة والكريمة وشخصيته السمحة الرضية سيطول الحديث.. كان أستاذاً لتلاميذه وأباً يحل مشاكلهم المهنية والشخصية.. يمارس معهم الرياضة والركض والتزلج وكان محبوباً من الكبار والصغار في منطقته لتواضعه وعطفه.. وكان دماغاً عبقرياً وقلباً طفلاً.. وقد حلم بالسيد المسيح ليلة وفاته وحضنه المسيح مع أطفال العالم إلى جناته ليلة أحد الشعانين.

وفي الرابع عشر من أيار ٢٠٠٤ أقيم قداس لراحة نفسه في كنيسة الصليب المقدس للروم الأرثوذكس بالقصاع، حضرته جماهير غفيرة من الشخصيات الرسمية ومن أصدقائه ومحبيه ومقدري علمه وفكره وعبقريته.. وفي نهاية القداس ألقى المطران موسى الخوري الوكيل البطريركي كلمة تأبينية عدد فيها مآثر الفقيد، وأشاد بمناقبه وأخلاقه ومكانته العلمية، ودوره في تأسيس شبكة العلماء السوريين في المغترب (نوستيا) التي يرأسها الدكتور أسامة الأنصاري.. ثم ارتجلت الدكتورة بثينة شعبان وزيرة المغتربين كلمة قيمة تحدثت فيها عن مزايا الراحل العلمية، وتلتها الدكتورة أيسر الميداني ممثلة الدكتور أسامة الأنصاري فتحدثت عن جهود الفقيد في تشجيع العلماء المغتربين على العودة إلى الوطن الأم، ووضع إمكاناتهم وخبراتهم العلمية في تصرف الحكومة السورية.. وكانت كلمة الختام لأخته الأديبة والشاعرة إقبال الشايب غانم التي أثارت كلماتها الرقيقة والمعبرة شجون الحاضرين، وفجرت مدامعهم، وشكرت في نهايتها حضور كل من الدكتور إبراهيم حداد وزير النفط، والدكتور محمود السيد وزير الثقافة.. وفيما يلي كلمة الأديبة إقبال الشايب:

حطَّ زمناً عندنا.. غرّد فأطرب.. احترق فأضاء.. ثم ارتحل! غريب نحت بالدم

والدموع طريقه فأقام قمماً شامخة في العلم، ومن غيوم العمر أمطر عطاءً وانتصب قزحاً.. ثم ارتحل..!

كتم في شغاف قلبه أسرار غربته والبحيرة التي كان يركض حولها يومياً تشهد كم غاصت في عميق أغواره كي تغذي غور أعماقها..

شمس أضاءت العلم وخسفت حزناً على منابعها! على ظهر غيمة ربيعية الزهيرة ارتحل.. صفق جناحيه وارتحل طائراً غريباً جاء من البعيد وإليه ارتحل.. حنّ إلى القريب وبالروح إليه انتقل..

هل حقاً انطفأت شمعتك يا أخي أم هي شموع قومك قد هرمتْ!

ماذا أقول فيك وأصعب المراثي رثاء الأخ فاعذرني يا زهير، المهمة صعبة والكلمات غصة مذهولة لرحيلك..

ماذا أقول فيك وكيف أبدأ؟!

أمن زهير الشايب الإنسان؟.. لو كان زهير بيننا الآن لأغنى التواضع تواضعاً ولأطرقت عيناه الفرحتان خجلاً ولانحنى خفراً، وهل تنحني إلاَّ السنابل المثقلة خيراً وعطاء..

ماذا أقول في زهير الأب والأخ والإبن والزوج والصديق؟ كان كل هذا معاً وفي سمو هذه العلاقات الإنسانية التحم..

نعم هكذا عرفه الأقربون والأبعدون فلا يظن أبداً أن كلامنا مبالغةٌ تملّح بها المنابر والمراثي.. حبّذا يا أخي لو كنت أقلَّ برّاً أو أكثر أنانية، أقلَّ طيبة أو أكثر تسلطاً، ربما هانت علينا الفجيعة قليلاً.. ربما وضعنا الفضائل والشوائب في كفتي ميزان العاطفة.. ربما.. ربما.. كلّه هذيانُ الشجن..

البرفسور زهير الشايب، زهير العلم والمعرفة والبحث سيبقى خالداً بآثاره القيمة لكن هيهات أن تتكرر ظاهرة زهير الإنسان ذاك القلب الذهبي والابتسامة النقية والعينان الطافحتان ذكاء وطيبة ونبلاً..

ماذا أقول عن ذاك الدماغ المصدَّر المشع الذي أضاء العالم علماً وغفلت بلاده عن تقدير ثمنه إلاَّ حين كُرم قبل عامين في ولاية هيوستن على مسرح جورج براون سنتر بحضور ثلاثين ألف شخصية ومنح أرقى جائزة مع خمسة عشر عالماً من العالم جائزة أفضل أكاديمي وباحث انتبه العقل العربي من غطيطه وأحس بوجوده ولكن للأسف بعد فوات الأوان!

إنه عالم من الشرق خرج من أربعة جدران الشرق المتواري الذي يُتهم بالانحطاط والانحسار والجمود، وخرّج حوالي سبعين دكتوراً وألّف ستين كتاباً تدرّس في جامعات العالم ناشراً مئات الأبحاث، وحاز على جوائز عالمية لا تحصى وخاطب آلاف العقول من أعلى وأرفع المنابر في العالم وأعان طلابه مادياً ومعنوياً.. نعم.. زهير ثمرة هذا الشرق المتهم بينما أدمغة أبنائه تنتشر إشعاعاً وعطاء وإبداعاً واكتشافات تنير أرقى المنابر والجامعات والمختبرات وتغذي أرصدة العالم المادية والمعنوية.

إنه عالم عربي سوري رفع كرامة بلاده إلى مواقع القيادة الرائدة في البحث والتأليف والإبداع.

إنه عالم شرّف العلم إذ أضاف إليه روحانية الشرق الصافية النقية وضميره الحي الكريم. فأخرجه من شيطانية فاوست إلى ملائكة العطاء السخي دون مقابل.

إنـــه عالم ارتقى أعلى سلالم الحقيقة المجردة واستمر صامتاً متواضعاً وديعاً، حانياً رأســه بكرامة نبيلة ومطلقاً جناحيه بمسؤولية واعيــة. أُخــذ بالعلم والبحث والكشف فأهمل نفسه وصحته وراح ضحية العطاء والواجب..

إنه عالم عربي سوري حقق بشخصه إنســاناً وأكاديمياً فكرة حوار الحضارات بعيداً عــن الــثرثرة والسفسطة والدعوات الكلامية، مزج بحكمة وعبقرية ومنطق حضارة الإنسان الشــرقي الكــريم بــتقدم الغــرب التكنولوجي الســريع، مما دعا طلابه المنتشرين في أمريكا والعالم لأن يقولوا بصوت واحد إنه أفضل من علّمنا في حياتنا الأكاديمية والبحثية.

إنه عالم عربي احتضنه الغرب فرد له الجميــل بمــثله ولم ينسَ شرف الانتساب إلى أصالة جذوره السورية فلا تناقض بين عالميته وعروبــته ولا بين سوريته وإنسانيته فلْتفاخرْ به سورية والعرب بعد أن كرمه العالم.

مــاذا بعد يا زهير.. ماذا تقول عائلتك المفجوعــة برحيــلك.. أيــن رياحين الكلمات تعتصــر مخــزونات الألم والحزن.. أين زنابقُ الأحــرف تغترف من جوارح القلب الحنين إلى ذكرياتــنا مــن الطفولــة.. الشباب.. الأحلام.. الآمــال.. الانكســارات.. الانتصارات.. الغربة الفراق الأشواق.. أين ياسمينُ دمشق يا زهير الــذي كنت تهواهُ.. هل سنشمه بعد عطراً كما كــان يــوم كــنت..؟! أيــن قاسيون ومعلولا وبــردى.. أيــن.. أيــن..؟ كيف ننسى وداعنا الأخيــر..؟ كيف أصفُهُ والجرح ثخين والقلمُ لا يكــتب بــالدم..؟ كيــف ننسى كلماتك الأخيرة الرصــينة المؤمــنة..؟ أنا حاضرٌ يا رب وهو الذي زارك في الرؤيا آخر أيام حياتك واستبقى معــك فــي ســريرك.. ستبقى يا زهير روحاً طاهرة في جنان السماء توجهُنا وتحرسُنا كما كــنت دوماً.. ستبقى في قلوبنا ذاك الابن البار والأخ الصــدوق والأب الحــنون.. ماذا بعد يا زهير..؟؟

لســت هــنا لأعدد مآثركَ ومنجزاتك وأصــفَ خصــالك النبيلة بل لأنثر مع الناثرين المتكــلمين الكــرام باقة زهر على زهيرنا في ذكرى أربعينه ولأشكرَ باسم أمه وأخيه الدكتور عصــام الشــايب وابــنه جوني فؤاد وعائلتي الشــايب وصباغ معالي الدكتورة بثينة شعبان لتفضــلها بالحضــور والمشاركة ورعاية هذه الذكــرى الحزيــنة، مفــتخرين بعلمها وفكرها وثقافتها، على كلماتها المعبرة والعميقة تقديراً لمكانة زهير الشايب الإبداعية العالمية معتبرة أن رحيــل زهيــر ليس خسارة للعائلة فقط بل لوطنه الأم سورية وللعرب..

أشكر الدكتور أسامة الأنصاري رئيس شــبكة (نوستيا) ممثلاً بنائبة الرئيس الدكتورة الصديقة أيسر الميداني على كلماتها وجهودها والتي دأبتْ بكل إخلاص ومحبة قبل وبعد وفاة زهيــر على تكريمه وتقديره وفاء لعمله الجاد والمخــلص مــع أعضاء لجنة الأمناء من أجل تأســيس وإنجــاح هذه الشبكة لوضع إمكانات وإبداعــات الأدمغة المهاجرة في خدمة الوطن الأم ســورية وأشــكر كــلاً من وزيري النفط والــثقافة لتفضــلهما بالحضــور وأشكر هذا الصــرح الــبطريركي الكــريم الذي استضافنا بــرعاية وصــلوات ســيادة المطــران موسى الخوري وسائر الكهنة..

كمــا أشكر الحضور الكريم قائلة لهم: "لقد مسحتم ألمنا وحزننا بلمسة عزاء حنون".




القصيدة السوداء..

شعر: الدكتورة سعاد الصباح

كم غيَّرَتني الحربُ.. يا صديقي
كم غيَّرَتْ طبيعتي.
وغيَّرتْ أُنوثَتي.
وبَعْثَرتْ في داخلي الأشياءْ
فلا الحوارُ مُمْكِنٌ
ولا الصراخُ مُمْكِنٌ
ولا الجنونُ مُمْكِنٌ
فنحن مَحْبُوسانِ في قارورَةِ البُكاء..
وقد كَسَرَتْني الحربُ يا صديقي
ولخبطَتْ خرائطَ الوجدانْ
وحطَّمَتْ بوصلَةَ القلبِ
فلا زَرْعٌ..
ولا ضَرْعٌ..
ولا عُشبٌ..
ولا ماءٌ..
ولا دفءٌ..
ولا حنانْ..
قد شوَّهَتْني الحربُ يا صديقي
والحربُ كم تُشَوِّهُ الإنسان..
فهل هناكَ فرصةٌ أخرى..
لكي تُحبَّني..؟
وليس في عَيْنَيَّ إلاَّ مَطَرُ الأحزان..
يا سيِّدي:
ما عدتُ بعدَ الحربِ.. أدري مَنْ أنا..؟
أَقطَّةٌ جريحةٌ؟
أم نَجْمةٌ ضائعةٌ؟
أم دَمْعَةٌ خَرساءْ؟
أم مَرْكبٌ مِنْ ورقٍ
تمْضُغُهُ الأنواءْ؟
أين تُرَى سنلتقي؟
وبيننا مدائنٌ محرُوقةٌ
وأُمَّةٌ مسحوقةٌ..
وبيننا داحِسُ والغَبْراءْ..
فهل هناكَ فرصةٌ آخرى
لِكَيْ تُحبَّني..
من بعد ما حوَّلَني الحزنُ إلى أجزاء..







قد سرقَتْني الحربُ مِنْ طفولتي
واغْتالت ابتسامتي..
ومزَّقتْ براءتي
واقتلَعتْ أشجارِيَ الخضراءْ
فلا أنا بَقِيتُ مِنْ فَصيلةِ الزُّهورْ..
ولا أنا بقيتُ من فَصيلةَ النساءْ..
فمن تُرى يُقْنِعُني؟
أَنَّ السَماءَ لم تَزَلْ زرقاءْ؟
وأنّنا..
في زمنِ التلوُّث الروحيِّ..
والفكرِيِّ..
والقوميِّ..
يمكن أن نظلَّ أصدقاءْ؟؟
يا سيِّدي:
لستُ أنا جزيرة السَّلاَمْ
ولا أنا الأُنْثَى التي كان
على أجْفانِها
يستوطِنُ الحَمَامْ..
ولا أنا..
نافورةُ الماءِ..
وسِمْفونيَّةُ الرُّخامْ..
يا سيِّدي:
قد يَبِسَ العُشْبُ على شفاهنا
وانكسرَ الكلامْ..
فكيف نسْتَرجعُ أيامَ الهوى..؟
ونحنُ مدفونانِ..
تحت الوَحْلِ والرُّكامْ..
يا سيِّدي:
أنا التي غيرُ التي تعرفُها
ذاكرتي مثقوبَةٌ..
فلا التَّواريخُ على جدرانِها باقيةٌ
ولا العناوينُ..
ولا الوجوهُ..
والأَسماءْ..
أين تُرَى نذهبُ، يا صديقي؟
وما هناكَ بوصةٌ واحدةٌ نملكُها
في عالَمِ الأرضِ
وما الذي نفعلُ في بلادٍ..؟
يَصْطَفُّ فيها الناسُ بالطابورِ..
كي يَسْتَنشقُوا الهواءْ!!
يا سيِّدي:
لكَمْ أنا أشعُرُ بالإحباطِ
والدُّوارِ..
والإعياءْ..
فلا تُؤاخذني على كآبتي
إذا قرأتَ هذه القصيدةَ السَّوْداءْ..






آدم وأدماؤه.. أو أدماء وآدمها..هما، كما نعرف جميعاً قطبا الحياة البشرية بكافة مفرداتها منذ سيطرة النوع الذي ينتميان إليه على معظم مجرياتها. وهما أيضاً محورا الوجود الإنساني بجميع تركيباته منذ أضحى العقل ناظماً لأغلب مكوناته بالقدر المتزايد من إمكاناته والعلاقة بينهما لم تكن على مدى التاريخ المقروء أو المستقرأ علاقة نمطية مستقرة واضحة المعالم في مختلف البقاع والأصقاع بقدر ما كانت علاقة تذبذبية ذات أبعاد مفهومة في بعض جوانبها وغامضة في بعضها الآخر بحيث يكتنف رصدها وتلمس تطورها الكثير من الصعوبات والعديد من المزالق..

وقد دفعنا حب الاستطلاع إلى تتبع جذور هذه العلاقة منذ الأعماق السحيقة ثم تقصي أنماطها عبر المراحل اللاحقة من خلال العديد من المصادر التي تناولتها بالدراسة والبحث. وقادتنا الهواية إلى محاولة لملمة صورها المتناثرة، وتنسيق ملامحها المتغايرة، وتنغيم تقاسيمها المتنافرة ثم جمعها في ألبوم واحد بعد استبعاد الناشز النافر الذي قد يؤدي إلى تشتيت الإضاءة وبلبلة الرؤيا، حرصاً على وضوح المعالم، وتفادياً لتشويه وخلخلة المساقط.

وساقتنا التصورات إلى المساهمة في استقراء الأشكال الجديدة التي يعكسها تطورها المستمر استناداً إلى ماضيها وارتكازاً على حاضرها، وتطلعاً نحو مستقبل أفضل...

ولعل محاولة إيجاز هذه المحاولة في ساعة أو بضع ساعة تجابهها بالإضافة إلى تعذر عرض الأشكال الغزيرة لهذه العلاقة خلال

فترة قصيرة من الوقت مشكلة أخرى تتعلق بصعوبة إيجاز النصوص التي تشكل متن هذه المحاولة بأسلوب مغاير للذي يضمها دون أن تفقد هذه النصوص خصوصيتها ذلك لأن الأسلوب الذي تم استخدامه في معالجة مضمونها أميل إلى الشعر منه إلى النثر وأقرب إلى روحه المعروفة من روافدها غير المألوفة، وأوسط بين قديم الشعر وحديثه وبين سجع النثر وبديعه.

وعموماً سنسعى في هذه العجالة إلى اقتطاف عدد محدود من المقاطع الرئيسية من كل من الفقرات الست والستين اللواتي يشكلن المتن من هذا الكتاب. وسنجتهد في ربطها أثناء الحديث بعبارات محددة تدل على مضمون المقاطع الأخرى والتي لا يتيح ضيق الوقت فرصة إيرادها، وذلك استكمالاً للصورة وتوضيحاً لأبعادها..

واستهلالاً نبدأ بالفقرات الثلاث الأولى من الكتاب والتي خصصت لعلاقة المرأة بالطبيعة خلال فترة مشاعية الرزق قبل نشوء الملكية في بدايات التاريخ المعروف حيث نجتزئ منها ما يلي:

في البدء كانت الأم
كان الثدي وكان الرحم
أضفيا على المرأة سراً
تعلق فيه خيال ووهم
حاكت بهما الطبيعة دهراً
كأصل يحاكي بهاه الرسم
فأضحت لها زمناً مرّاً
كأنها الخطو والظل والوشم
وجسدت صورها وأضافت عطراً
تنوّع وتعدد فيه الوسم

وبعد استعراض مظاهر الطبيعة التي شبّه الأقدمون الأم بها كالعشب والقمح والزهر والغاب والشجر والحب والثمر والتي هي مستمدة جميعها من الأرض التي اعتبرت الأم صنواً لها ومستندة كلها على الخصب باعتباره سر تدفق الحياة واستمرار الوجود خلصت المحاولة إلى أن الأم في ذلك الزمن..

غدت شعاراً يخطف البصرا..
استحال رمزاً احتوته القمم
وأمست مبتدأ الكون والخبرا
وأرست نهجاً اتبعته الأمم
وأصبحت مثالاً يقتفى أثرا
وجبلاً عالياً على رأسه علم
وأضحت آلهاً يتجدد صورا
مثله نصب جسده صنم

ثم انتقلت إلى وصف مظاهر الحياة على وجه الأرض عندما كان نظام المشاع الطابع السائد فيها خلال فترة الصيد والقنص والجمع والالتقاط قبل القيام بالزراعة التي اكتشفتها المرأة ثم مارسها الرجل وابتدأت الصورة في التغير من السلام إلى النزاع ومن الكفاية إلى الحاجة معبرَة عن ذلك بأنه خلال تلك الفترة

لم يعرف الناس صراعا
ولا باتوا يوماً جياعا
كما حدث لدى الذكر
عندما أصبح لها يزرع
بعد أن انتزع الشراعا
وابتكر الملك فالاقطاعا
أرسى معالم الحضر
بالفأس والمنجنيق والمدفع

ورغم تشبيه عدد من الشعوب للذكر بالقمر واعتبار الشمس أنثاه لدى قسم منها وكوكب الزهرة أنثاه لدى القسم الآخر ولكنه يبدو أن تشبيه المرأة بالقمر استناداً إلى خصائصها الأمومية كان أعم وأشمل. ومن الفقرات السبع اللواتي يرد من بعضها تعليل ذلك يرد في بعضها الآخر أسباب تشبيه المرأة بمظاهر أخرى للطبيعة أكثر خصوصية من تشبيهها بمظاهر خصب الأرض حيث نورد منها ما يلي:

لأن الشمس كالذكر
يشبهها فيه تصلده
ولأنها تلسع كالشرر
فتضني الفؤاد وتجلده
شبهوا حواء بالقمر
جعلوه يرفدها وترفده

* * *

وشبهوها أيضاً بالجرة
وقدسوها في ذلك العصر
واعتبروا أنها البؤرة
لبدء الخليقة في السفر
وأنها المنسج والإبرة
لغزل خيوط العمر

* * *

وكذلك رمزوا بالسمكة
للأنثى حفيدة حواء
تخيلوها حورية في الشبكة
تتمايل بزهو وخيلاء
فمدوا سيطرتها والبركة
أيضاً على عالم الماء
كما مدوها بفخار
على ساحة البيداء
وعلى كواسر البراري
رمزا لبأسها والمضاء
ومثلوها بحمام حنون
يحلق ويخفق في السماء
تحمل غصن زيتون
بلا كلل ولا عناء
وكأنه روح الرب
تهبط من أعلى فضاء
وأكثر ما شبهوها بالحية
وسموها على اسمها بحواء
واشتقوا منها لفظ الحياة
وضموا الكلمتين بالحياء
واعتبروا الطرد من الأدلة
لنجاح مساعي الرقطاء

* * *

ومثلوها بنار حمراء
تحاكي البرق والشهبا
واعتبروها رسولة الأحياء
وللخصب الشعلة والسببا
وتصوروها أسيرة للأنواء
تزيد من وهجها صخبا

* * *

واستمرت حواء كالفلَّة
بالبأس وبمعاني الطهر

إلى أن لاحــــت الطـــــلة

للمـــلكية فـــي الفكـــر

فأنـــزلت لمرتـــبة الزهـــرة

لصـــالح الشـــمس الذكـــر

وظـــلت معـــلقة كالجمـــرة

كمـــا يقـــول الطـــبري

وعـندما لاحـت هـذه التباشير، أي تباشير الملكية، نتيجة لممارسة الرجل للزراعة التي اكتشفتها المرأة في أثناء انشغاله بالصيد ابتدأ ذلك الرجل بالتفكير بكيفية الاستحواذ على جميـع وسائل الإنتاج للحصول على كل منافع الأرض وتوريثها لأولاده من بعده، إضافة إلى الحصـول على قدر أكبر من المتعة ولقد هداه تفكيـره إلى العمـل على تخصيص نفسه بعدد كبير من النساء لكي يتحكم بأهم عوامل الإنتاج في ذلك الوقت وهو قوة العمل.

لأن هـذا التخصـص يـرفد استثمار الأرض بقوتهـن وقـوة نـتاجهن من المواليد وذلـك بعد اكتشافه العلاقة بين الجنس والحمل والـتي كانت مجهولة لفترة طويلة من الزمان. حيـث اسـتغل هـذا الاكتشاف للسيطرة على المـنافذ التي يمكن أن يتسرب من خلالها نسل الآخـرين لمزاحمته على الملكية. ونقتطف من الفقرات الخمس التي تعرضت إلى هذه العلاقة ما يلي:

وكـانت عمـلية الخـلق ريـادة

يمـتزج فيـه الإعجـاز بالسـحر

فكمـا الطـبيعة خـلقت من غمر

وكـان ذلـك طـريقة ونهجـاً

كذلـك الأم حمـلت مـن طهـر

وخـلقت من نفسها بنفسها زوجاً

أثـار فـي الأعمـاق أمواهـاً

بذاتهـا خلطـتها وأحكـت مزجاً

* * *

وأمـا الذكـر فقـلد خطاهـا

متسـامياً عـلى عمـلية الـولادة

اسـتلّ مـن صـدره بذاته ضلعاً

وصـنعها مـنه بـنفس الإرادة

جامعـاً الأبـوة والأمومـة جمعاً

جـاعلاً نفسـه محـور القيـادة

* * *

ولمـا أطـل الإرث الرأسـا

وتسـلل بـبطء ليحكـم وثاقـا

داعـب غريـزة التمـلك ومسـا

وأخـذ يزعـزع الإلفـة والوفاقا

نفـض الـرجل عـنه الرمسـا

واحتضـنه بشـوق وبادلـه عناقا

ولقـن بوسـاطته للأنـثى درسا

أغـدق مـنه عـليها إغداقـا

وهنا برز دور الكهان لاستغلال الوضع المسـتجد والـذي كان للرجال اليد الطولى في الوصـول إليـه ولعب التطور دورا كبيرا في التقـلب بيـن الأشـكال المختـلفة للممارسة الجنسـية الإباحيـة فـي ظل سيطرة التفكير الكهـنوتي الـذي استمر بتوجيه المسيرة فترة طويلة من الزمان.

وقد برزت بعد تلك المرحلة صور عديدة وأشكال مختلفة للاتصال بين الرجل والمرأة تم استعراضها وبيان المعالم الرئيسية لتطورها، وبيان أشكالها وصورها والتعرض لنظام الرق وتحري أسبابه ودوافعه ونتائجه.

كما تم التعرض للمواضيع المتعلقة بالرقص والسحر والتطبيب والحلم والحب والإلهام والتي نجتزئ من الفقرتين اللتين تعرضتا للموضوعين الأخيرين منهما مايلي:

وأما الحب كملهم ورسول
ينقل النجوى فتنتشي القلوب
ويحمل العشاق لعالم معسول
تتكافؤ فيه المحاسن والعيوب
فلم يعرف بهذا المضمون
واختلف مفهومه حسب الزمان
ففي البدء طغى الجنس بجنون
واعتبر الأساس لدى الإنسان
خالطته حينا بعض الظنون
لتوالد النفوس وتسامي الأهواء
وأخذت نظرية النصف المفقود
حيزا من فلسفة المثلاء

* * *

وبعدها صارت غزيرة الوجود
هدفا وغاية لنشر العمران
وأضحى التكاثر أساس الالتقاء
واتحد الحب والجنس في المعاني
وبات الحب للروح كالغذاء
قدسه البعض وعامله كسلطان
واستمر آخرون بمعاملته بجفاء
يصل غالبا لمرتبة الهوان

* * *

ولكن المحبين رغم الغرام
استبعدوا التقاء الزواج بالحب
وأجاب أغلبهم بعزم وإقدام
مشبها لهما بالسلم والحرب

* * *

وعلى مر الأيام
وكما القمر في سماه
ارتبطت حواء بالأوهام
ارتباط الصوت بصداه
وأضحت ملكة للأحلام
يهواها القلق وتهواه
تثير عرائس الشعر
كيما تسعد دنياه
وتزهو بعرش الحكمة
وتعتلي حينا مطاياه
بالنغم والخدر والرقصة
تكشف عنه خباياه
ولدى حدوث الغبة
يكشف السر فجواه
وعند انتهاء النوبة
يكتشف في نفسه مولاه

وأما مسيرة النساء والجمال فهي مسيرة طويلة ومريرة قادها الرجال لتكريس فصلهن عن ما يدور حولهن. ووقعت النساء في حبائلها واندفعن في مسالكها وتهن في دروبها. وقد تم استعراض الأقوال التي أطلقها الشعراء على مواطن الفتنة لديهن والأوصاف التي اسبغها العشاق على مكامن الحس عندهن وقد جاء في بعضها:

فلحسن وغزلة العينين
أطلق عليها عيناء
وعند سواد البؤبؤين
مع كبر سميت دعجاء
وإذا كانا محاطين
ببياض خالص فبرجاء
وأما سعة الفرجتين
فاعتبرت من أجلها نجلاء
وعند تبطين الجفنين
بدكنة محببة فكحلاء
ولكثافة شعر الهدبين
أطلق عليها وطفاء
وعند طول الحاجبين
مع رقة فهي زجاء

وبعد استعراض وتوصيف أغلب مسميات مفاتن مكونات الوجه كبضاء، وعيطاء، وعنقاء، وقنواء، وشماء، وشنباء، وسعفاء، وقمراء، وبلجاء، وغمزاء.. وأغلب مسميات مفاتن مكونات الجسد كأسيلة الخد، وشهية القد، وملفوفة العنق، وبضّة المتجرد، وسبطة البنان، ورداح القبل، ورابية الكفل، وخميصة الخصر، وعطرة الفوح، ومكسال الضحى، وغرثى الوشاح، وزلاء، وعجزاء، وبخراء، وستهاء، وغنجاء، وفرعاء، ومعطاء، وملساءوغيداءوهيفاء، وغناء، وفيحاء، وفخماء، ولمياء، ورصفاء، ورصعاء، ورسعاء، ودرماء، وقباء...

وبعد اعتبار مضمون هذه الأوصاف يمثل مطالب آدم في الأدماء جرى استعراض بعض مطالب الأدماء في الآدم والتي لم تخرج عن تمثلها فيه للإباء، والكبرياء، والقوة، والسخاء، والعلم بأدواء النساء..

وتم التطرق بعد ذلك إلى ذكر بعض معطيات الطبيعة التي كرس الرجل جزءاً منها لإرضاء النساء بغرض تدجينهن كاستخلاص العطور من الأزهار، واستخراج الدر من أعماق البحار، واستغلال صغار الحملان وكبار الفرائس وبعض الطيور والديدان، واستثمار كريم الأحجار في إحكام الطوق بعد ربطها بتقاطيع المرأة بمكر وذوق.

فالنهدان من المرمر، والشفتان من الياقوت الأحمر، والأسنان من اللؤلؤ، والبؤبؤان من السبج، والعينان من الزمرد، والشعر من الدر،والخصر من الزبرجد، والساعدان من الياقوت، والساقان من العاج، والبطن من المرجان، وأما الأحمران الذهب والزعفران ففيهما حياة وهلاك الحسان...

كما تم استعراض الأوصاف الحسية الأخرى التي أغدقها عليهن كتشبيه لهن

بالقشدة والشهد وبالتوابل التي تتعامل مع الجوف معاملة السيد مع العبد، وبالفاكهة التي تكثر بالصيف عندما تتحرر من البرد. فالكرز للفم واللوز للعين، والثدي للرمان، والوجنة للورد، وحمرتها للتفاح، وأما ثمار الجسد الأخرى فعصية على الخصر والعد...

وبعدها تم الانعطاف إلى موضوع التزين والموضة ومن خلال ذلك تم استعراض مدى تأثر ملامح النساء بمستحضرات التجميل المختلفة من مساحيق ومراهم وسوائل، ومدى تأثير مبتكرات الموضة على أجسادهن، كالبناطيل التي تلتف مع الالتفاف وتظهر كل ثنية فيهن والتواء، والفساتين التي تظهر ما تخفي بإسراف، والتسريحات التي أصبحت لهن كالماء والهواء..

ولقد ساهمت محاولات التشويه هذه إضافة لعملية حجز النساء في الخباء إلى إحكام القيد على عقولهن بهدف تغيبهن عن ما يدور حولهن. ولم تملك كثيرات منهن خلال فترة طويلة من الزمان سلاحا لمجابهة هذا القيد إلا بالمعاندة والمراوغة والكيد وهو موضوع بعض فقرات المحاولة التي نقتطف منها:

وترنحت حواء في ثمل
من سحر التزين والنعوت
وأخذت تعاني من الخلل
وتناست مسيرة عشتروت
أسلمت قيادتها للرجل
فأمسك بالقيد بجبروت
يوجه خطاها بلا كلل
ملوحا بعصا اللاهوت

* * *

وفرض الذكر عليها خباء
كما يفرض على أمواله
ارتضته خجلا أو حياء
أو خوفا من أعماله
أو لتزداد بهاء..
إذا التفت في أوصاله
واستغله مالكها دهاء
وتعلق في أذياله..
بعثر أنوثتها أشلاء
ولملمها في أشواله

* * *

وظلت حواء في الظلمة
أجيالا عديدة وقرونا
تلملم وتستجمع النقمة
لتواجه الهوس المأفونا
تتظاهر أحيانا بالذل
وتلوح بأطباق الشهد
وتعامل غريمها في دل
فيمنى نفسه بالسعد
وتبعد عنه في غل
وتجور عليه في الصد
وتمرغه في الوحل
إذا ما ابتلى بالوجد

وتصل لغايتها على مهل
رغم شراسة الفهد

وعندما أخذ العلم بالانتشار في القرن الأخير أخذت حواء تفيق من سباتها وتنفض عنها الخدر لتواجه واقعها. وابتدأت محاولات إفرادية وجماعية في الكفاح لاستخلاص الحق المسلوب. وأخذ الصراع شكل المواجهة الساخنة في بعض الحالات والحرب الباردة في بعضها الآخر. وقد قامت جمعيات نسائية متخصصة بالمطالبة بهذه الحقوق ومحاولة استخلاصها من مغتصبيها. وكان للكثير من النساء شرف الريادة لقيامهن بممارسة هذه الحقوق على رؤوس الأشهاد رغم أنف المعارضين.

بينما دارت في الخفاء ولا زالت تدور حروب ومنازعات بعضها يحاول التخلص من المفاهيم التي كانت تعطي للرجل سلطة التحكم بمقاليد المرأة بلا حدود من خلال نظام الزواج باستبدالها بمفاهيم أخرى ضمن النظام نفسه تحدد من تلك السلطة وتفتح الباب واسعاً أمام المرأة للمشاركة فيها. وبعضها الآخر يتوجه إلى الأنظمة نفسها المندثرة منها أو القائم يحاول تحسين صورة المرأة فيها عن طريق إعادة قراءتها وسلامة تأويلها مع بيان الانحراف في تطبيقها لتغير الانطباع السائد واستبداله بممارسات موافقة.

وكان ذلك نتيجة تولد إحساس عميق لدى الكثير من النساء بفشل السياسة التي اتبعها الرجل والتي عبرت عنها الفقرة التالية كما يلي:

والواضح أن الذكر قد فشلا
وأخطأ متعمداً طريق الصواب
فكان مصاب الإنسانية جللا
جعل تاريخها حافلاً بالعذاب
يعج بالمآسي والحسرة
سلب وخادع واستعبد وقتلا
بهدى الأنانية وقسوة الأنياب
وجعل من الحروب له عملا
وميداناً للنهش بدون حساب
استناداً للمواريث والفطرة
وحديثاً فتح العقل السبلا
وبدا العلم بتبديد الضباب
وراح يزيح العيب والخللا
ليعيد للحياة نكهة الأحباب
بتعاون الحر مع الحرة

بينما تولد إحساس عميق آخر في الوقت نفسه لدى هؤلاء النساء، وخصوصاً المثقفات منهن للكفاءة الواضحة التي أبدتها نساء كثيرات أتيحت لهن الفرصة لإثبات قدرتهن مما يشجع بنات جنسهن على محاولة محاكاتهن والتفوق عليهن ونقتطف من الفقرة التي عبرت عن ذلك ما يلي:

وباستقراء التاريخ وحكاياته
تتلألأ بعض النجمات
أيقظن شعبهن من سباته
ورفعنه لأعلى الدرجات

وبقــــلب قديـــم صــــفحاته
تـــتوهج بعـــض التفصـــيلات
يدعمهـــا فـــي مجـــرياته
حاضـــــر ويســـــندها آتـــي

* * *

ولعـــل الجـــ ـنوح لــــلحب
بالـــبذل والتضـــحية والعطـــاء
يــــلقى عـــناية الـــرب
فـــي ظـــل أقـــس الأنـــواء
أو أن شــــــفافية القــــلب
وقدرتــــه عـــلى الاســـتقراء
تمكـــن مـــن تذليـــل الصـــعب
وفيــــه قـــــوة الضــــعفاء

ولقــد أســهم الاســتقلال الاقتصادي لــلمرأة والــذي كــان النتيجة الحتمية للعمل المسـ تند إلى العلم أو الخبرة في قطع المرحلة الصـعبة من الطريق المؤدي للمساواة وظهر تــنامي هــذا الإســهام باطراد وبوضوح على سطح أغلب المجتمعات ونورد من الفقرة التي عالجت هذا الركن الأساسي ما يلي:

ولعـــل الاعـــتماد عـــلى الـــذات
أفضــــل طـــريقة ووســـيلة
لـــتحقيق أغـــلب المتطلـــبات
وجعــــلها واقعـــا لا مقولــــة
وتثبيت الأقدام على الأرض
بـــالعمل وتـــنمية الكفـــاءات
تصـــبح الحيـــاة جميــــلة
وبالاســـتقلال فـــي الإيـــرادات
تــــتزعزع مفـــاهيم القبيــــلة
ويتماشى الطلب مع العرض
وليســت القــوة مــن المستلزمات
للعصـــر ولا العضـــلات المفـــتولة
بـــل أضـــحت أغـــلب المهمـــات
تـــــتم بيســـــر وســـــهولة
وتنـــتظم كضـــربات النبض

والمســـاواة المســـتهدفة والتي طالبت بهـــا الفقـــرة التي تلت ذلك والتي نجتزئ منها الأبيـــات التالية تحاول أن تعامل الطرفين على سواء دون أدنى تحيز أو تمييز:

وليـــس المطـــلوب إعـــادة حـــواء
لتســـتلم الـــزمام بواســـطة انقـــلاب
ولا المـــرغوب إحـــلال النســـاء
محـــل الـــرجال وتـــبادل الألقـــاب
وانمـــا المقصـــود مشـــاركة الأحباء
نـــداً للــــند وبـــدون اغـــتراب
واســـتثمار مفـــاهيم الحـــب والعطاء
لــــدى النســـاء وفـــتح الأبـــواب
وليـــس المعـــنيُّ بمفهـــوم المشاركة
نشـــر التهـــتك وتعميـــم الفســـاد
وتحطيـــم الأعمدة لينهار السقف

وإنمــا المــراد صــحة العلاقــة

بيــن الطــرفين بيســر ورشــاد

ليجــتز مــن الأعمــاق الخوف

فمــا الــتمدن بتــبادل القبــلة

فــي الحدائــق أمــام القــوم

فهــذا جــرح للإبــاء مشــين

وإنمــا الــتمدن بــتكافؤ البشــر

دون تفضــيل لمــال أو جــنس

ليرســى أســاس لــلحياة مكين

وكــذا تحــرر الأنــثى والذكــر

يهــذب المشــاعر ويســمو بــالّحس

ليقــام ســور محصن وحصين

وأمــا الــتطور المــرتقب والتحضــر المــرتجى مــن التعامل الذي ستؤدي إليه هذه المســاواة فينبغي أن ينصب على ابتكار الأطر الــتي تســاعد على تعميق المكارم في النفس وتكــثيف الصــور التي تساهم في الابتعاد عن مــزالق الــرجس وتعميم مفاهيم الحق والحب والجمال وإعمالها دون خلط أو لبس في جميع المناطق التي تشرق عليه الشمس..

وبعد..

من المؤكد أن الأدماء نالت في الفترة الأخيــرة قدراً كبيراً من حريتها تباينت درجته بتباين التطور الاجتماعي لدول العالم المختلفة. لكنه يظهر جلياً بأن القدر الذي نالته منها حتى الآن انعكــس فــي أغلب الدول المتطورة على الشــكل لديها أكثر من انعكاسه على المضمون بحيــث لا زالت تتصرف في كثير من المواقف الحياتيــة كالجاريــة التي تخش أن تتحرر أو كالفكرة التي تأبى أن تتخمر.

وفي مواقف أخرى تبدو كالغيمة التي يــزول تأثيــرها بعد مرورها، أو الزهرة التي يشذي أريجها وتؤذي أشواكها.

وقد يعود ذلك إلى قصر الفترة الزمنية الــتي تــلت بداية هذا التحرر بالمقارنة بطول الفــترة التي كانت ولازالت في بعض المناطق تعــاني فيها من قسوة القيود بحيث لم يمكنها ذلك من التخلص حتى الآن من العقد ومركبات الــنقص الــتي حفرها القهر في أعماقها على مــدار الــتاريخ. ورغــم ذلك فإننا نجد مقابل الأشكال المذكورة صوراً عديدة ومتناثرة لنساء وفــتيات يتوهجن كشعلة فكر مضيئة ويتمايلن كــترنيمة حــب دافئة. في حديثهن غذاء للعقل والقلب معاً، وفي تصرفهن بداية مشوار يبشر باقتحام الحواجز وسحق الآلام.

وتمــثل الفقــرة قبل الأخيرة الأوضاع التي وصلت إليها حواء في الآونة الأخيرة في كثير من المجتمعات ومجتمعات الدول المختلفة مــنها بشكل خاص والتي نقتطف منها الأبيات التالية:

ونظــرياً حــواء اليــوم أحــلى

مــن زمــان رغــم الطــلاء..

وكــأن الجمــال لازال حــلاًّ

لإعــادة البســمة وبعــض الــبهاء

لشــفاه افــتقدتها مــن قــرون

وأمــا المفــاهيم فمــازالت رمــلا

بعــد أن كــانت مــنارة للنســاء

تـتجمع ذراتهـا مهـلا مهـلا

لبـنـاء المسـتقبل بكـل عـنـاء

واستعادة التماسك في المضمون

لكـن الواقـع ينـبذ العقـلا

وتحيلـه الـتقاليد إلى هـباء

إذا لـم يصـبح الكـلام فعـلا

بقـناعات تصـدر عـن الأدمـاء

وممارسـات تؤديهـا بفـنون

وتـنحية واقـع ينـبذ العقـلا

تنـثره الـتقاليد فـي الهـواء

وتجعـل مـن تصـوراته حقـلا

تذريِّـه التعصـب بـرياحٍ هوجـاء

وتجعلـه مسـرحاً للظـنون

هـنالك مـن يقول بأن القيم والصفات المرتـبطة بالرجولة سببت على مدار التاريخ مـن الضرر أكثر مما سببته من المنفعة. وأنه ربمـا نكـون الآن في مرحلة نحتاج فيها أكثر إلى الصـفات المرتبطة بالأنوثة. ولا يسعنا إلاَّ أن نؤيد هذا القول ونضيف إليه بأنه لا خلاص من الحالة التي تردَّت إليها البشرية إلاَّ بإعادة بعث هذه الصفات المستندة إلى الحب والرحمة والعدل ونبذ القوة والتي تملك النساء منها كماً أوفر وكيفاً أزهى وأنضر..

وأمـا الآمـال الكـبار التي قد يصفها الـبعض بالمـثالية أو الخيالية فإنه لا مفر من التعـلق بهـا ومحاولـة إتباعها وخاصة من النسـاء الـلواتي عـانين أو يعانين من الظلم والاسـتلاب واللاتي عشن أو يتخيلن ما تجره الحـروب من دمار وخراب هذه الآمال نقتطف من الفقرة التي تضمنتها الأبيات التالية..

فـلو تـأبت نسـاء الظـلام

وجعـلن العدالـة أسـاس الوئام

لاخـتفى الظـلم بيـن الأنـام

وحـل الـنور محـل الظـلام

ولـو تعففَّـت نسـاء السـراق

وجعـلن الأمانـة أسـاس الوفاق

لأضـحت الـنزاهة سيدة الأخلاق

وصـارت المساواة نصب الأحداق

ولـو تمـنَّعت نسـاء الجـنود

وعامـلن أزواجهـن بكـل برود

لانمحـت الحـروب مـن الوجود

وأضـحت الحيـاة حديقـة ورود

ولـو ربطـت نسـاء الصـناع

وقـف تصـنيع السـلاح بالإقناع

لعمـد منـتجوه إلى الإقـلاع

وأضحى سلاحهن مصدر الإشعاع

نهـل مـن أبيـات

ينـبذن المصـلحة مـن أجـل القضـية

أبيـه تسـاند أبيـه

وهـل مـن وفيـات

وفيـه تـرفد وفيـه

يـنذرن الحيـاة لإسـعاد البشـرية




إلى بيروت..!!

شعر: خالد الخنين

تفاحةُ العشَّاق خَدُّك واليَدُ
وقصيدة الشعراءِ أمْسُكِ والغدُ

وحصانُك المسروجُ من حبقٍ ومنْ
وردٍ بذاكرة المواسم يَشْرُدُ

قمرانِ في شفتيك وجهُ صبيةٍ
وقصيدةٌ في بالِ أرزكِ تولدُ

فبأيِّ ميناءٍ سأُرسي مَرْكبي
والموجُ يُرغي في الضفاف ويُزبِدُ؟

ولأي دوحٍ سوف يأوي طائري
والحبُّ في أضلاعه يتنهَّدُ؟

بيروتُ جئْتُك حاملاً في دفتري
ذكرى بِرَجعِ حُروفها أتعبَّدُ

أتناهَبُ الرؤْيا يُسافرُ مَشْهَدٌ
في آخرِ الدنيا ويرجعُ مَشهَدُ

وأنا على شفتيك لَحْنٌ تائهٌ
وعلى جُفونِكِ كحْلُها والمرْوَدُ

من أبجديات الدهور يَلُفُّني
حرف على عتباتِ بيتك يسجدُ

بيروتُ يا شطَّ الخلود يحوكُه
من كبريائك لؤلؤٌ وزَبَرْجدُ







يـــــا كعـــبةَ العشَّـــاق رفَّ حنيـــنُهُمْ
شـــوقاً فـــتاهوا فـــي الـــندي وعَـــرْبَدُوا

أنـــا قـــادمٌ وردُ الـــرياض جوانحـــي
وعـــلى ذُرى جَـــبلِ الخـــلودِ أغـــرِّدُ

لبســـت حكايـــاتِ المســـاء قصـــيدتي
والأيـــكُ خـــلفَ المنحـــنى يـــتأوَّدُ

أصـــطادُ نهـــراً تائهـــاً وغمامـــةً
بيضـــاءَ تقـــربُ كالـــرَّجاء وتـــبعُدُ

لـــي مـــن (عشـــيات الحـــمى) مُـــتفَيَّأٌ
وشـــذى صـــبَا نجـــدٍ بهـــا لا يُجحَـــدُ

عَطّـــرنَّ أيـــامي وهـــنَّ رواجـــعٌ
فحَـــنوت مـــن آلائهـــا أتـــزوَّدُ

ولكـــلِّ (ليـــلى) فـــي كـــتابي وردةٌ
ولكـــل بـــلقيسٍ بكفـــي هُدهُـــدُ

بيـــروتُ مـــن كـــانتْ رســـالتُه الهـــوى
فـــبكلِ ســـاحٍ سَـــيْفهُ لا يُغمَـــدُ

* * *

بيـــروتُ يـــا ســـفْرَ العصـــورِ إلى مـــدىً
لا ينـــتهي وَحكايـــةً تـــتجدَّدُ

أهـــلي هـــنا.. وطـــني هـــنا.. وتُـــرابُهم
والـــنارُ تـــومئُ لـــلقِرى والموقِـــدُ

وصـــدى صـــهيلِ خيولهـــم فـــوقَ الـــذُّرى
فـــتحٌ توهـــجَّ مِـــنْ ســـناهُ مُهـــنَّدُ







بيـــــيروتُ ذاكـــــرةُ العــــروبة كـــــلَّما
حـــــنت إلى السُّـــــقيا فـــــأنتِ المـــوردُ

قاتـــــلْتِ بالحــــرفِ النــــبيلِ وقاتـــــلتْ
لغــــةٌ مقدســــةٌ وشـــعبٌ أصـــيدُ

ســـــافرت فــــي الدنيـــا وعُـــدْت بــــنِجمة
رُحـــــنا عــــلى لألائهــــا نــــتوحَّدُ

بيِّـــــروت مـــــا همســـــتْ بــــليلٍ أرزةٌ
إلا وغازلَهــــا بـــــنجدٍ موعــــدُ

بيِّـــــروتُ مـــــا أنَّـــــتْ بحقــــلٍ وردةٌ
إلا وأبـــــناءُ العــــروبةِ عُــــوَّدُ

بيِّـــروتُ جئـــتُك مـــِن صـــبَا نجـــدٍ ومـــنْ
أطـــلالِ خولـــةَ والأحـــبَّةُ حُشَّـــدُ

أُرســــيِ عـــلى شِـــطِّ الخِـــلود ســـفينتي
والـــتيهُ يـــبرق فـــي خطـــايَ ويُـــرعِدُ

فِـــي ظـــلِّ قامـــتك الـــتي لا تنْحـــني
إلا لجـــبارِ السَّـــماء وتســـجُدُ

والشـــرقُ تأســـرُهُ حكايـــاتُ الهـــوى
عـــن وردةٍ فَـــي حُضـــنِ وادٍ تـــرقد

حمـــراءُ كالشَّـــفق الذَّبيـــح وكـــلَّما
لـــثمَ النســـيمُ خدودَهـــا تـــورَّدُ

* * *

بيـــروتُ يـــا قمـــرَ العواصـــم مَـــنْ رأى
قمـــرا عـــلى شـــفةِ العصـــورِ يُزغـــردُ







مـــــا بيـــــنَ أرْزكِ والـــــنخيل أخـــوَّةٌ
وهـــوىً بكـــلِّ قضـــيةٍ يـــتأكدُ

يـــا كعبةَ الشـــعراء يـــا محـــرابَهُمْ
أبـــداً عـــلى الأيـــامِ أنـــتِ الفـــرقدُ

مـــن كـــلِّ تيَّـــاه القوافـــي إن شـــدا
غـــنى (عكـــاظ) لـــه وَجُـــنَّ (المِـــربَدُ)

هـــلْ لـــي مكـــانٌ أســـتعيدُ بـــه عـــلي
وتـــري حكايـــاتِ الغـــرام وأســـردُ

(عمـــرٌ) أنـــا وسْـــمُ الحجـــاز عـــلى فمـــي
وهـــناكَ أتهـــمُ فـــي الـــرِّمال وأنجـــدُ

لـــولايَ مـــا (هـــندٌ) ولا جاراتُهـــا
إلاّ رمـــالٌ فـــي الفـــلا تتـــبدَّدُ

إن قـــلتُ: موعدنـــا (العقيـــقُ) تـــنهَّدتْ
شـــوقاً ولا عـــبثٌ هـــناك ولاددُ

وغـــدا مجـــنِّي كاعـــبينَ ومُعْصـــراً
وأنهـــارَ مَـــا تـــأبى ومـــا تـــتوعَّدُ

عـــثرتْ بألســـنةِ الوشـــاة وطالمـــا
تشـــقى المحـــبةَ بالوشـــاةِ وتفسُـــدُ

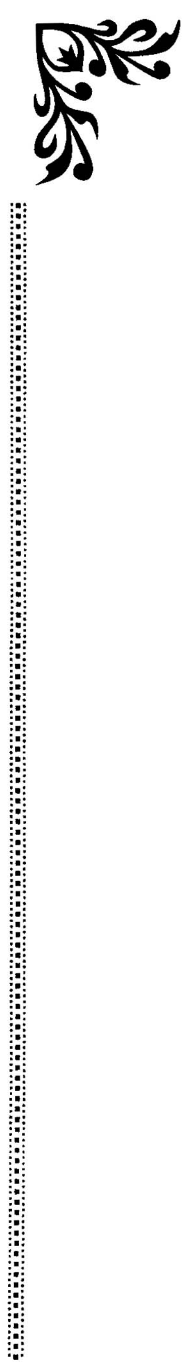
والأخطـــلُ العـــربيُّ ينـــثرُ دُرَّهُ
شـــركاً ويـــنظِمُ عقـــدَهُ ويُنضِّـــدُ

إن قيـــل: مـــن شـــيخُ القـــريض؟ فإنَّـــهُ
شـــيخ بـــرغمِ الحاســـدينَ وسَـــيِّدُ

فـــي منـــتداهُ زهـــا الـــبيان بريشـــة
راحـــت تنمـــنمُ لوحـــةً وتجـــوِّدُ





غـــنَّى وأرهفــــت العـــروبةُ سِــــمعَها
فـــإذا الجديـــدُ هــَــو الأصــيلُ الجيِّــدُ

* * *

بيـــروتُ أقمـــار الجـّنوبِ عـــلى يــدي
أضـــواءُ مَـــن ضــحَّوا لـَــهُ واستشـــهدُوا

الخـــالدونَ ومـــن عـــبير جـــراحهِم
وُلـــدَ الخـــلاصُ وطـــابَ ذاك المولـــدُ

وتـــناثرتْ جُـــثَثُ الغـــزاة وفـــرَّ مـــنْ
زحـــفِ الكمـــاةِ الخـَـائنُ المـــتهوِّدُ

وتطـــاولَ الوطـــنُ المـــنيعُ تُـــرابُهُ
وانهـــارَ ســـدٌّ بالجـــنون مشـــيَّدُ

واصـــطادَ جُـــنْدُ الله جيشـــهمُ ومـــا
أجـــدت حصـــونٌ دونهـــم أو مَرصَـــدُ

والشـــعبُ يقـــتحمُ الصـــعابَ إذا مشـــى
بـــالحبِّ والإيمـــانِ وهـــو موحِّـــدُ

شـــعبٌ يعمِّـــدهُ المســـيحُ بحـــبه
ويقيـــنهُ أنَّ الرســـولَ محمَّـــدُ

* * *

بيـــروتُ جئـــتُك بالمحـــبَّة قاصـــداً
الحـــرُّ يُـــرجَى للوصـــالِ ويُقصَـــدُ

قلـــبي – يـــا بيـــروتُ – نـــبعٌ ســـائغٌ
للشـــاربينَ ودُرُهُ لا يَـــنفَدُ





حَسَّانُ النَّغَم

(محرابُ الألم، وديوانُ اللوعةِ والقهر)

د. مها خير بك ناصر

بقلم:
د. عز الدين البدوي النجار

الألم.. هذا اللفظ المُفْرَدُ الغريب، الأكثرُ حضورً وسطوةً من ألفاظ البشر، أحدُ طرفي الوجود الإنساني، بل هو مركزه وبيتُ قَصيدِه.. السرورُ يُنْسَى، ويبقى طعمُ الألمِ المُرّ.

الألم.. هذا البَرْزَخُ الفاصل، بينَ حياة لا حياةَ فيها تلتهم الأيام: مطامعَ قميئةً عقيمة وحشية، وشهوات بلهاء.

أو تبددُها باستهانة: لهواً ساذجاً، ومسرَّات صغيرةً، وحضوراً ذاهلاً أبكم.

وبين حياة سامية فوق الحياة، مستشرفة للسرّ، متطَّلعةٍ إلى المجهول، واقفةٍ على عَتبات الأبدية.

الألم.. هذا النهرُ العظيم الجبار.. الصامتُ.. غيرُ المرئي.. الساري في الوجود الإنساني سريانَهُ القاهر.

ينغمس فيه اليسيرُ الهيِّنُ العابر.. من فُتات الحياة.. أو الجليلُ الغالب، فيستحيل هذا وذاك - بسرِّ الألمِ الغامض - دُراً وزمرداً يتلألأ في اليد، ونجوماً تتوهج في آفاق النفس.. وفي آفاق السماء.

الألم أكبرُ من الفن، إلاَّ أن الفن، مع ذلك، دليلُ البصائرِ الحيةِ إلى سرِّ الألمِ العظيم.

* * *

حسَّانُ النغم.. ديوان شعر

في غير هذا المقام العبارةُ مستقيمةٌ، والتعريفُ دالٌ صحيح.

إلاَّ أنه في هذا المقام خاصةً تعريفٌ قاصرٌ بائس من أجل أنه تعريفٌ للنارِ الخالدة بالرماد، وللمعنى الجليل الحيِّ بألفاظَ منطفئة خامدة.

وهذه دعوى لا تحتاج إلى دليل، دليلها أن تقبل بنفسك على عالمٍ من الحضورِ المُرهف الكامل، يَسري فيه ألمٌ طاغٍ مُمضّ، جمعته بين دفتيها - في مجاز من مجازات لأرض الصغيرة - دفتا ديوان.

* * *

حسَّانُ النغم.. هو حسَّانُ الطفولةِ البريئة نفسُه.

مُهجةُ نفسِ والديه، صغيرُ الأسرةِ الغَضّ، أملٌ مشرقٌ واعدٌ كانت تتطلع إليه، مقدمةُ الفرحِ التي كأنها كانت مقدمةً إلى التَّرَحِ الكبير.

بخطٍّ غائمٍ متعثّرٍ هو خطُّ طفل، إلاَّ أنه يُسْفِرُ، أعني يُشرِّقُ، عن نفسٍ كبيرةٍ، وروحٍ غربيةٍ شاعرة.. كتبت تلك الروح:

أمٌّ تعشقُ الولدَ كروحٍ تعيشُ بداخلها
كأمي الرائعة،
كنورِ البدر، كوجه الشمس، كتدفقِ الماء،
كضفةِ الينابيع.
قلبُها كالماءِ لا ينتهي وسعُه
وكما قلبُها كبير.. غضبُها صغير
مع كل هذا، بهذا الكلام
لا أستطيع التعبير لك يا أمي عن مدى حبي لك

* * *

النصُّ غيرُ العاديّ، المكتوبُ بخط صاحبه، كان صفحةَ العنوانِ غيرِ العاديِّ أيضاً. والتوقيع: حسَّانُ النغم، وقَّعَتْهُ عن صاحبه والدتُهُ الثكلى، الشاعرةُ الدكتورة مها خير بك ناصر، مستجمعةً فيه وصفَهُ العميقَ في ذاته، ووصفَهُ في نفسِها المُجرَّحَة، مستفتحةً به سيرةَ ألمِها اللاهف المكتوم، الذي أفصحَت عنه أنَّاتٌ تصوَّرَت بصورة كلمات.. وزنُها الحقيقيُّ الشَّجَن، وبَحْرُها الألم، وقوافيها الأحزان.

لا يعرف قارئُ الديوان من خبره إلاَّ أن يدَ القسوة والجشعِ والجهلِ غالت الطفلَ الغضّ، في عمليةٍ تنتمي إلى أي شيء إلاَّ إلى عالم الجراحة الإنسانيّ المرهف الصحيح.

وكان هذا - في حد ذاته - لا سبباً في تضاعف الحزن على الوالدين الثاكلين فقط، ولكن في أن يكون لهذا الحزنِ طعمُ القهرِ الخَشِنُ المُرّ.

الأمومةُ العظيمةُ الثَّكلى - ومن ورائها أُبُوَّةٌ مثلُها - المترعةُ بذلك الحزن، المتجرِّعَةُ ذلك القهر، هي مركزُ الديوانِ وروحُهُ وحقيقتُهُ.

* * *

الأمومةُ والأبوةُ وجها الجوهرِ الإنسانيِّ الواحد الأسمى.

معناهما المعنى، وحضورُهما الحضور، موصوفان تامان لا يحتاجان إلى وصفٍ فارق. الكمالُ فيهما كامن، فلا يفتقران إلى وصفٍ بكمال أو تمام. والحضورُ معهما صافٍ مُبَرَّأٌ كامل، فلا يحتاجان إلى وصفٍ ببراءةٍ أو نزاهةٍ أو صفاء. سرورُهما السرور، وألمهُمَا الألمّ، وشوقُهما الشوق، وحيرتُهما اللاهفةُ المروَّعَةُ - التي لا يعرفها على حقيقتها إلاَّ أبٌ أو أمّ - هي الحيرة.

عن هذا الجوهر الأسمى صدر الديوان، أعني عن تلك الأحزانِ النبيلة، التي اتخذت شكلَ كلمات.

* * *

ما من سبيلٍ إلى كلامٍ معتاد في مقامٍ غير عادي، النقدُ المُتْرَفُ المحترفُ هنا مُعَطَّل، قارئُ الديوان يكاد يتهيَّبُ لمْسَهُ، إجلالاً له، بمجرد الوقوف على حقيقته، وعلى بليغ اشتمل عليه، كأنما هو قُدسٌ مُقَدَّس يُطيفُ به مؤمن.

الكلامُ - الذي هو صورةُ الحالِ والنفس والخاطر - لوحده يذهب مذاهبَ أخرى، ملتمساً بها البيان عن عالمٍ من المعاني أخر. الكلامُ هنا عن الروحِ لا عن الفن، يلتمس الفنَّ من أراده، وعلى أن فيما ستراه لتوّكَ شظايا من ذلك الفن، متوهجةً بتوهجِ الروحِ التي صنعتْهُ، كأنها من كوكبٍ مُنْفَجِرٍ أو شهاب.

بغتةً.. تغير كلُّ شيء..
غيرته يدٌ أثيمةٌ جاهلةٌ خرقاء

ولأول وهلة،
بدا وكأنما أحاط بالروحِ كونٌ مغلق
تيارُ الحياةِ المتدفقَ توقف،
تحولت الأزمنةُ إلى زمنٍ واحد متصل
الحاضرُ التفاتٌ دائمٌ إلى الماضي

معراج الغبطة الذي كان

أنشودةُ الفرحِ الغامرِ التي انكسرت
أنشودةُ الغيثِ الذي سكن
غناءُ الآتي الذي كان حُلُماً معلّقاً على الأهداب
ملاعبُ طفولة حسّان، مغداهُ ومراحُه، كلماتُهُ
الطفلةُ العميقةُ الشاعرة.. وأشياؤه،
الأطفالُ.. رفاقهُ وأترابهُ السائلون عنه
والعمرُ.. العمرُ الذي كان يرفُّ نضارةً
وحبوراً بحسان
عمرٌ شقيٌّ تمضغُهُ الأيام
عُمُرٌ يشيخ قهراً.. وجرحٌ يحيا ولا يموت
سنواتُ الألمِ.. الطويلةُ المرةُ..
ألوفُ سنين الغصنُ ذاوٍ
والفؤادُ.. بقايا فؤاد
وإنسانُ العينِ دربٌ للأُلى ارتحلوا
والقلبُ الذي كان يغني للأملِ
تحول إلى قيثارةٍ حزينة

جراحا الروح

دمعةُ العينِ التي يقتاتُها شيطانُ عَبْقَر
اليدان اللاهفتان جمرٌ يُؤَجِّجُهُ الدمع
اليدانِ المنتحبتان شوقاً إلى الراحل الحبيب..
الطيف الحاضر المسافر..
رفيقِ الخاطرِ العابقِ ذكرى..
حسَّان الآتي مع نسيم الصُّبح
مع بسَمات أطفالِ الوجود
خَطْوُهُ في الأضلعِ.. طيْبُ صداه
همساتُ خَطْوِهِ يشتاقُها ويترشفُها القلب

ابتسامتُهُ التي تخطو فرحاً على التلال

* * *

آه.. أيتها الروح المعذبة
حياةٌ اختزلها الحزن
الانتظار.. حريقٌ رمادُهُ الصبر
العصا التي يتوكأ عليها يتأكلُها لذعٌ لا يطاق..
لولا رحمةُ الرحيمِ انهدمت
العينان مُتسمِّرتانِ على قميصٍ كقميصِ
يوسفُ.. يرد إليهما البهجةَ والحياة
"اخرج عن صمتك يا حسان
صمتُك زادٌ للأشجان
قل لي.. أشتاقُ إليكِ أماه
الأذنُ تعشقُ.. همسَ حنان
قلبي.. يستجدي عطفك
يستعطي وعدَ الأقدار
آه.. ما أتعسَ روحاً من نار الحرقة تقتات
عيناني، بني.. ثلج
وفؤادي يقطرُ مع بسمات الصبح.. دما
من يفهمُ ثلجَ النظرات
أقوالٌ ما أروعَها.. إيمانٌ.. صبرٌ.. لا إيمان..
فتّشْ يا ولدي في قلبي
تعرفُ أني صرت هباء
عُدْ يا ولدي.. خاطبني
أتوسلُ عطفكَ يا حب
أتوسلُ برّكَ.. اسمعني
همسات الخطو.. وشجو حنان
أرجع لفؤاد معذبة.. وصلاً تمنحُهُ الأطياب"

* * *

في الألم.. في الألمِ وحده.. يعرفُ الإنسانُ قدره
هكذا قالت ذات مرةٍ روحٌ لفَّها ألمٌ عظيم..
المرءُ، في حياة ذاهلة هائمة، غائبٌ عن نفسه أو كالغائب..
في الحزن يجدُ المرءُ نفسه..

الحـــزن.. الحزنُ الكبيرُ الشفاف.. قادرٌ على أن يتعرفَ في الصميم، تعرُّف الروح على الروح، على كل حزن

أحزانُ الأرضِ المفرَّقَةُ على كلِّ قلب
يحتويها قلبٌ محزونٌ نقيٌ واحد
مــريمُ البتول.. فاطمةُ البتول.. محمد الدرة.. والد محمدٌ ووالدته..

كــل حزنٍ.. كان أو سيكون.. يفهمه، يعــرفه، ويتوحد بهِ، ويغنِّيه غناءه الذي ينبغي له، قلبٌ محزونٌ صادق..

"آه محمد
يا درةَ أحزانِ فلسطين
وسرةَ فَجر
من صمت القهر يدوِّي
صومعةٌ عيناك حبيبي
يا عصفورَ الرفض
يا جسراً بين النبض وبيني
ذراعُ أبيك ظلال
شجرٌ.. حصنٌ
والأحلامُ أمان
قلادةُ خوفك نار.. تلتهم الهدأة
تلقي الرعب
تؤصل فينا روحَ البعث
نارَ الثورة
نحرق زمن النكسة

* * *

أم محمد.. يا ألمَ الثكل
وحرقةَ وجعِ البعد
دموعُك في أحشاء الليل
سيوفٌ تصهل
وضميرُ العالمِ آذانٌ
صوتُكِ يخترقُ الوقر.. يصهل
جسد محمد نار
يخترق جلمودَ عيون
يقضقضُ صدأ العفنِ
دمهُ.. بيارات تثمر
في أجراس القدس..
هلال الأقصى.. طيب بخور.. تراتيل النصر..
أهازيج الأفراح"

* * *

مِعراجُ الروحِ.. أوله معراجُ الألمِ الصادق

سفينةٌ مجنحة.. تمخُرُ الأثيرَ إلى أعلى
الــروحُ أكبرُ من الهيكل الإنساني الذي تتردد فيه
بقانونـها تعملُ لا بقانونه
إذا أطبق الغمّ، وخيَّم اليأس، واستولى الألــم، عمِـلَت الــروحُ عمــلها الغامض في استشراف الأفقَ الساَّجي غير المنظور.

ســرُّ الحيـــاة.. المؤلمـــة بتصاريفها أحيانـــاً، أو المعذبـــة.. أكـــبرُ من الألمِ وأعمقُ وأشمل نحو هذا السر.. معراجُ الروحِ الغامض

قيدُ الألمِ الآسرُ من وجه.. حريةُ روحٍ ولهى، من وجه آخر

فـــي أفقٍ حلو، عَدْلٍ، لا مرئي.. يعرفُهُ القــلب.. تصــطلحُ الأضــداد.. تــتلاقى أبعادُ الكون.. ينطفئ لهيب الثلج.. يرتاحُ الليل.. من شــجوِ المحبوبِ الراحل.. يتئد الزمنُ الهارب.. فـــي محراب البوحِ سلام ما من شيءٍ يخدشُ صفوَ القلب.. المحبوبُ حضورٌ دائم في معراجِ الــروح.. الأحــرفُ مــترعةٌ جذلى في أطواءِ الأحــرفِ خير.. في أطواءِ الأحرفِ نور.. نحو الــنورِ يسير الخير.. العفو.. الرحمة.. أسماءُ الرحمن..كلُّ حُبورٍ تجتاح الأرض.. يشرقُ في زمنٍ آت..

يُفــرحُ بالخيــر المحــض.. أطفــال الأرض.. إخوةَ حسّان..




أنا رَجُلْ..!!

شعر: دولة العباس

أنـــا رَجُـــلْ.. يحـــقٌ لـــي مـــن النســـاء أربعـــة..
الشـــرع قـــال هكـــذا.. مـــا أروعـــه.. مـــا أروعـــه..
يطيـــب لـــي دربُ الهـــوى، يـــروق لـــي أن أتـــبعه..
أن ألـــبس الأهـــواءَ، فـــالأهواء لـــي كالقـــبَّعة..

أنـــا رَجُـــل.. أنـــا أُحـــب كـــلَّ يـــوم امـــرأة..
لا تغضـــبي "حبيبـــتي" يـــا أنـــت يـــا أحـــلى امـــرأةْ..
للـــبيت أنـــتِ كـــنزُه، للقـــلب أنـــت المدفـــأة..
لـــك الوفـــاءُ حـــليةٌ مـــنّي.. وظـــلّي مُخـــبأة..!!
لكـــن دعـــي عـــنك القشـــور، ومـــا بهـــا من لآلآة..

* * *

إيـــاكِ أن تتخضّـــبي.. بالـــنور أو تتوثـــبي..
لغـــدٍ.. لمـــا هـــو بعـــدُه إيـــاكِ أن تتأهـــبي..
أو ليـــس قلـــبي كـــل مـــا تبغيـــنه.. مـــن مطـــلبِ؟
هيـــا اذهـــبي وأتـــي بكـــأس وفاقـــنا هيـــا اذهـــبي..

* * *







ذهـــبتْ.. ولـــم تـــرجع إليـــه ولـــم تَعُـــدْ بالمـــأربِ..
ذهـــبتْ.. تُفـــتِّش عـــن طـــريقٍ آمـــنٍ لـــلمهربِ..
مـــن فكـــر إنســـانٍ غـــبيٍّ آه مـــن فكـــرٍ غـــبي..!!

*　　*　　*

وســـعى إليهـــا مـــن جديـــدٍ ليقـــول: يـــا حســـناء عـــودي
فأنـــا أنـــا تـــوقٌ إلى شـــمِّ الأزاهـــر والـــورودِ

*　　*　　*

هـــتفت لـــه غضـــبي.. وحقـــك لـــن أعـــود إلى القيـــودِ
أنـــا لـــن أعيـــشَ عـــلى الوعـــودِ ولـــن أخـــاف مـــن الوعيـــدِ
سأصـــوغ أقـــداري.. وأصـــنعُ مـــا يُقـــرره وجـــودي
لـــي مـــثل حقـــك فـــي الحيـــاة.. وفـــي المـــراتب والصـــعود

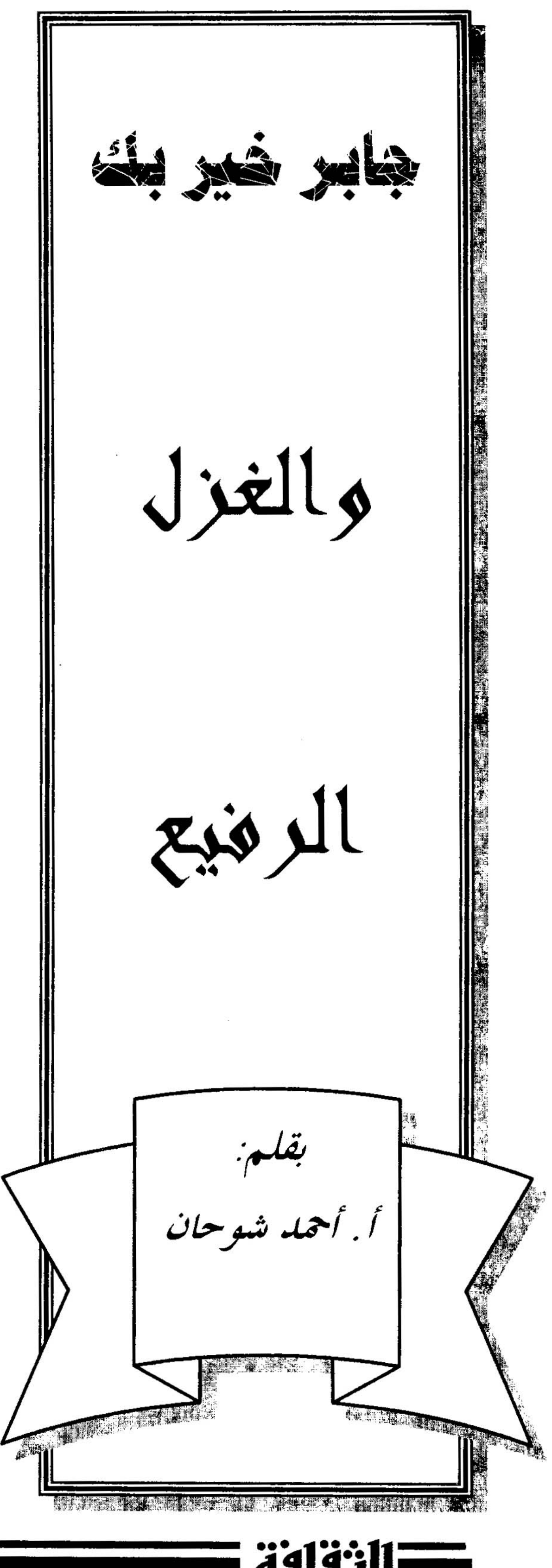
*　　*　　*

رجـــع "الهمـــامُ" ولـــم يَعُـــدْ.. واخـــتار أنـــثى مـــن جـــليدِ
قبـــلتْ بكـــلِّ شـــروطه حُكْمـــاً.. وغُـــلّتْ بـــالحديدِ
وتعـــلّمتْ كيـــف الخضـــوع يكـــون رمـــزاً للســـجودِ..

*　　*　　*

والـــزوجةُ الأولى تكـــافح والـــتوهجُ فـــي الوريـــدِ
وغـــدت تـــرافقها الشـــموس عـــلى المفـــارق والـــنجودِ
نســـيتْ زمـــانَ تحكُّـــمِ الإقطـــاعِ فـــي زمـــنِ العـــبيدِ..



قال نقاد الشعر والشعراء: من لم يتغزل من الشعراء فليس بشاعر، وما يأتي من الشاعر فالمعنى دفين في قلبه.

ولولا معرفتي بشاعر الغزل والذوق الرفيع - جابر - ما طرقت بابه، ولا دخلت فناءه الرحب، لأرى من خلاله، القلب الكبير، والمشاعر الصادقة، والإحساس المرهف بأنغام الحياة صعوداً وهبوطاً، وطولاً وعرضاً.

هذه ورقة من وريقات دوحته اليانعة. قرأت من خلالها صفحة من صفحات حياته العبقة، وبقية وريقات حياته تدعو للفخر والاعتزاز.

وأقولها للأمانة، ما زرته يوماً إلاَّ ورأيت القرآن الكريم أمامه على طاولته فهو يجد فيه غذاءه الروحي والفكري، وغذاءه اللغوي الذي لا يشبع منه، فهل ما نظمه من قصائد في الغزل والهيام جاءت تعبيراً عن مكنون نفسه، وحقيقة حاله، أم أنه يعبّر من خلالها عن واقعه الذي سقط فيه معظم الشعراء، أم أنه شيء آخر كتم معناه في سويداء قلبه!!

ويذهب الشاعر مع بعض أصدقائه إلى مكان لهو يعجب الشعراء حصاده، فتفتنه تلك الراقصة التي كانت تلعب بقلوب مشاهديها كما يلعب اللاعب بكرة القدم، كانت القلوب معها، والمشاعر معها، والنواظر إليها، هذا يهز رأسه وذاك يرفع يده، وثالث يحلم ويحلم.. ولكن نسي الجميع أنها ترقص لكل مشاهد، وتخلب كل زائر لمحفلها، وتشده كل منادم ومعابث لها.

ويتيه شاعرنا في حركاتها وسحرها، وجمالها، فيأتيه شيطان شعره ويلقنه هذه القصيدة.

تـلهو وتـرقص كالخيـال

وتميـس فـي سـر الجمـال

فـترفّقي بقلوبـنا

لا تكـثري رشـق النـبال

أودعـت عـندك مهجـتي

وأنـا الـتقي مـن الـرجال

وأتيـت أكـتب صـادقاً

شـعراً لـربّات الحجـال

ويـتغزل بشعرها وضفائرها ونهديها وصـدرها وخصـرها وثغـرها وابتسـامتها وسحرها الحلال، وتلويحة يدها، وغمز جفنها، واختلاسها قلوب المشاهدين.

وفي إحدى الليالي يلتقي محبوبته التي طالمـا تعـلق قلبه بها، وأنس بلقائها، وتغنى بجمالهـا فراح يبادلها الكلمات الرقيقة، ويتودد إليهـا بمعسـول الكـلمات العذبة لترضى عنه وتسـلّم له قيادها، لكنها جفلت عنه قائلة: لقد ودعـنا الحب، وغاب عنا نجم الصِّبا فاهدأ فقد ذهب الشباب.

يـا ليـل ما أجمل النجوى وأعذبها

فـأنت تـبعد عـنا العيـن والرقـبا

إنـي أحـن إلى الأجفـان أعشقها

ولـلخدود ولـلنهد الـذي وثـبا

يـبقى الفـؤاد فـتياً حيـن تغمره

نعـمى الجمـال ويحيـا يانعاً رطبا

وكلما طرقنا باب غرام شاعرنا وجدناه فـي كـل يـوم هائماً على وجهه خلف إحدى الجميـلات ومـا أظـنه ممـن يـنزلقون في أعشاشـهن، لكـنه كشـاعر مبدع امتلك زمام الشـعر يسـتطيع أن يرسـم الـلوحة المثلى، ويرسـم الصورة المعبّرة، والهيكل العام الذي يـراه في غيره، فكأنه ينظم على لسان غيره، وكأنه ينسج على منوال غيره، بل وكأنه يعزف على الآلة التي عزف عليها غيره.

إنـه فنان يرسم لوحة، فبقدر إبداعه تنجح لوحته:

أ ورود خـدك أم شـفاهك تعـبق

رحـل الـربيع وظـل قلـبي ينشق

فالشـعر والقـدُّ الجميـل وبسمة

كالـنور تزهـر فـي القلوب وتورق

يـا فتـنة الدنيـا وقبـلة عاشـق

أغـراه بالإيمـان وجـه مشـرق

فـربيع عمـري للحسـان وهبته

يـوم الشـباب أشـمُّ أو أتـذوّق

آمـنت بالوجـه الصـبوح مقدساً

والله يُعـرف بالجمـال ويُـرمق

وذهب الشاعر إلى طرطوس للمشاركة فـي أمسـية شعرية، فنظم قصيدة يتغزل فيها بعـروس السـاحل السـوري فجعـل من هذه المديـنة محبوبـته الجميـلة الـتي يهيم بها، فوصـفها وصفاً دقيقاً، وجعل منها فاتنة هيفاء شغلت شغاف قلبه، ولو أنه لم يفصح عنها في إحـدى الأبيات لظن القارئ والسامع أنه يهيم بغانيـة جميلة شغلت قلبه، فهو بها يهيم، لكن الشـاعر يـبقى كالبلبل الغريد الذي يغرد متى شاء، وكيف شاء.

حبيـبة هـذا القـلب جئـتك عاشقاً

وجئـتك أهـدي القـلب لا متكـلما

وحُبِّكِ ما ناجى الفؤاد حبيبة
على الهجر إلاَّ شطر عينيك يمما
فأنت بصدري كالفؤاد عزيزة
وأوفى الهوى العذري ما اخرس الفما

وتستمر رحلته الطويلة في العشق الدائم، والغزل المستمر، ليشفي غليله هذه المرة من محبوبته التي رأت نفسها أجمل الجميلات، وأعصى العصيات، ولكنه كشاعر مغناج يستطيع أن يصل إليها بوسائله الخاصة، وينال مراده منها، ولا يسأل عن العاقبة، فحب الغواني عنده يوم القيامة شفاعة لذنوبه:

روضتُ ثغرك بعد طول عذاب
ومن الشفاه ملأتُ كأس شرابي
فسكرتُ في حرم الجميلة تائهاً
بين النهود وبين رشف رضاب
كم كنت ودعت الشباب ولهوه
وأنخت راحلتي له وركابي
لُمي الضفائر فهي كل متاعبي
وشقاء هذا الأرعن المتصابي
حب الغواني يوم أحشر مرغماً
عند الإله شفاعتي وثوابي

إنه ينتقل من روض إلى روض، ومن عش إلى عش، يبحث عن دفء الغواني، فقلبه يطير من وردة إلى أخرى، ليشم رائحة الزهرة الحمراء، والبيضاء والصفراء، فلكل واحدة لون، وعبق وجمال، لكنه هذه المرة يلقي مرساته على شاطئ السمراء التي جاءت إليه تتمايل، وتسحره بحركاتها وقسماتها:

سمراء يا لحناً يرن
بخافق الوتر المثير
والوجه جل الخالق
الرسام كالبدر المنير
والثغر برعم وردة
نضجت بألوان العبير
وضفائر كالليل ناعمة
كباقات الحرير

ويسترسل شاعرنا في وصف محاسنها، حتى يسقط في شباكها:

هاجمتُ سر غرورها
ونسيت خاتمة المصير
وتركت عندك مهجتي
فترفقي بالمستجير

ومرة ثانية يقع شاعرنا في حب إحدى الفاتنات، وكعادته في وصف ذوات العيون النجل، بل وكعادة معظم الشعراء الذي يتقنون فن الجمال، وفن الوصف، وخاصة للجنس الآخر الذي يهيمن على قلوبهم قبل غيرهم.

صبي الرحيق على فمي
ومن الشفاه تكرمي
يا طيب ثغر عاطر
صاد تضرّج بالدم
يا فتنة في ناظري
يا لوحة في مرسمي

ومن فلسفة الشاعر جابر أنه في ديوان (ضحى) قد جعل بين كل قصيدة وقصيدة قصيدة حب أو عشق أو هيام، وتارة تأتي قصائد غزله وعشقه إثر بعضا، فكأنه شاعر فُطر على الغزل، وجُبل على العشق لذا نراه يَنادي ربّة الحسن علّها تلتفت إليه فتشفي غليله الصادي:

من بسمة الثغر أم من رقّة الهدُب
راحت ترش دروب الحب باللهب
أم من خدود كلون الفجر حمرتها
غطّت بفتنتها رفاً من الشُّهب
أفدي العيون اللواتي زانها حور
لو صرتُ أمشي على العكاز من تعبي
عشتار جاءت من الماضي تُسلّمها
عرش الجمال وتهدي التاج في أدب

وفوق كل هذا الهيمان الذي شغله، وجعله معروفاً به بين أقرانه من الشعراء، نراه يشك في حقيقة أمره وقصة حبه التي تغنى بها الركبان، فيقول في إحدى قصائده مناجياً قلبه، مستفسراً عن الحقيقة:

قد سألت القلب يوماً
هل أنا يا قلب أهوى
لست أدري غير أن
الحب أوهام وبلوى
والتصابي سهر يضني
وآلام وشكوى
فأجاب القلب أنت الآن
يا هيمان تهوى

ونرى الشاعر حتى في وصفه لمدينة حماة ونواعيرها، ينحرف عن المدينة فيتحدث عن الخدود والقدود والنواظر والأجفان، واللواعج والفؤاد وربيع العمر والغرام، ترى ما الذي دهاه حتى ينزلق في هذا الممر الضيّق، ويرمي بنفسه في أتون الحب والعشق، بينما هو يشرع في وصف مدينة كان عليه أن يصف نواعيرها وشوارعها وحدائقها، وأسواقها وصفات أهلها، لكن الرجل شغله الغرام فهو ينظم عنه حتى ولو طاف بالكعبة الغرّاء:

حملت إلى حماة وساكنيها
من الشطّ الجميل هوى وذكرى
أقاسمها اللواعج من فؤادي
وأقطف من سنا الخدّين زهرا
فكيف يطيق صبٌ هجر صبٍ
إذا كان النوى والبعد قسرا
فأنت على النواظر طيف علم
شهي يملأ الأجفان سحرا

ولم ينس جابر أنه قد شاخ وشاب شعره وإن لم يشخ قلبه أن يودع الشباب وفورته، وأيام الصبا وما فيها من طيش، فنجده يجلس في محرابه يودع تلك الأيام الخالية، ويعترف بغياب أيامه ولياليه السالفة التي يحنّ إليها كلما شعر بشيخوخته، فها هوذا يودع الشباب.

ودع نعيمك لو شبابك ودّعا
واندب إذا غرب الزمان وشيّعا

واقبل بما كتب الإله على الفتى

بين الولادة والوفاة وشرّعا

وا ضيعة الأعمار إن مرّت سدى

بين المتاعب دون أن نتمتعا

ونراه وهو يودع شبابه صلباً متمسكاً بمبادئ العشق والغزل الذين عاش من أجلهما، فبدلاً من أن يعتكف ويدمدم تائباً عما مضى، آسفاً عما بدر منه، نراه يذكر ماضيه، ويدعو لمثله:

خلقت عناقيد الكروم وقُطّرت

في الدنّ خمراً كي نعب ونكرعا

حمنا كما حام الفراش على الشذا

فالعيش أن نجني الرحيق ونجمعا

والآن يا عهد الشباب تقطعت

كل الأواصر، والرجاء تقطعا

يا مربع الأحلام ذابت مهجتي

شوقاً إليك، فما أحبَّ المربعا

وتقع جارته الحسناء في شراك ابتسامته وضحكه الذي لا يكاد يفارق ثغره، فتترنح أمامه، وتغويه فتغريه بجمالها ودلالها، ويتردد الشاعر الواله، أيسلمها قلبه أم يجفل بعيداً عنها، بعد أن كبر، وكان ظهره يتقوس لكثرة انحناءه أمام العاشقات.

ترنحت جارتي واهتز عطفاها

لما رأتني ضحوكاً حين ألقاها

وبادلتني بألحاظ مطمئنة

وأفصحت عن خبايا النفس عيناها

ويبدو أن شاعرنا قد نسي وهو بين يدي تلك الحسناء قول الشاعر الجاهلي الذي رأى جارته على حين غرَّة فغض طرفه ورأى أن مجرد النظر إلى الجارة بسوء هو خطيئة يجب التكفير عنها فقال:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

أما جابر خير بك فيخاطب جارته قائلاً:

دفنت في خافقي حزني وقلت لها

يا جارتي فارقت نفسي حمياها

فالحب والعشق والأفراح أسئلة

مرّت فواها لأيام الصبا واها

وينقطع الشاعر فترة عن إحدى فاتناته، وفجأة يرن جرس هاتفه فيرفع السماعة فإذا بالصوت الساحر يصله من خلال أسلاك دقيقة: ألو.. جابر. أنا سحر.. شذا.. ملاك..

ويتلعثم الشاعر في جوابه، وتختلف لهجته عن ذي قبل، وتعجب فاتنته من ارتباكه، مالك يا جابر، صفني عبر الهاتف..

وماذا أقول فيك، وأنت فوق الأقوال، وفوق وصف الواصفين!!

أنتِ كالعطر كالرحيق المصفى

من فم الزهر أو ضمير الدوالي

أنتِ بين النجوم أجمل نجم

يتهادى إلى جوار الهلال

زانــك الله لــلجمال مــثالاً

مــن فــتون فجــاء خيــر مــثال

ورد خــد، وكــرم ثغــر محــنّى

وحــراب مــن الــرموش الطــوال

ونعجب من هذه العاطفة الجياشة على الهــاتف فنسأله: أيها الشاعر الشيخ، مع من تتكــلم؟ أأنت مع زوجك التي عاشت معك حلو الحيــاة ومــرّها، أم مــع خليلة تنادمها سراً، فيضــع يــده على رأسه ضاحكاً: أتظنون أنني خالــلت في حياتي، إنني شاعر أتغزل بالحجر والشجر فيكف أصمد أمام السحر والجمال؟

فتــنت ناظــري فعشــت أغــني

أعــذب الشــعر للحســان الغوالــي

ويقول أيضاً:

خذيــني بيــن أحضــان التصــابي

فقــد ســكر الفــؤاد بــلا شــراب

ضــممت شــفاهك الســمراء يوماً

فضــيّعت الســؤال مــع الجــواب

وقطّفــت الخــدود فعــدت أحيــا

شــباباً أخضــراً غــضّ الإهــاب

إلى عيــنيك يحملــني حنيــني

وأحــلم بالتواصــل والإيــاب

خذيــني واحــرقي نفســي فــإني

أتــوق إليــك محــترق الشــباب

ويخــتم الشاعر ديوانه الثاني (ضحى) بقصــيدة يذكــر فيهــا ذكريات حياته السالفة، ويرســم فيها جدول أعماله المستقبلية، وسيرة حياتــه المعاصرة، ومعاملته كشاعر يعيش في مجــتمع كــثير فيــه صخبه وقلت فيه قيمه، وتداعــت عــليه أمم الأرض فراح يبحث عن الحقيقــة الضــائعة خلف سراب ظن أنه الماء الــزلال، فعــاد إلى ما كان عليه في الذكريات ليرســم بعدهــا واقعه المضطرب ويكتب سيرة حياته في أنصع صورة، وأبدع ريشة:

خــذ مــن فؤاد المرء لا من لسانه

إذا عــن خوافــي الصدر قال وعبّرا

تــتالت عــليه النائــبات ثقيــلةً

فأصــبح مقصــوص الجــناح معفّرا

تذكــرت أيــامي فســالت مدامعي

ومــن حاجــة المقهــور أن يتذكرا

خليــليَ هــذي ذكــريات معــذب

قضــى بيــن أنياب الكواسر أعصرا

وأصــبح بين الأمس واليوم عاجزاً

يعيــش عــلى الذكرى حزيناً مكدرا

أخــي جابــر.. هــذه نفثات ريشتي، ودمــوع قلمي تكتب عن خلجات قلبك ولواعج صــدرك، فهــل يبتسم القدر لي أن أجلس إلى جانــبك عــلى فــراش المــوت لتحدثني عن اعترافاتك بالحب العذري الذي نذرت له نفسك خــلال نصف قرن من حياتك، أو الحب الإلهي الــذي غــاص فيه شعراء سبقوك فيه، أم أنه نوع آخر من الحب والعشق والغزل!!

ذلــك ما ستُبديه الأيام لي، لجهلي بما أسأل عنه..




السقوط..

شعر: د. نائلة الإمام

ها نحنُ نَستعصي على الذوبان
في بَوْتقةِ الكونِ الكبيرْ
نتَرسبُ
عبثاً تَرُجُّونَ الإناءْ
تُسعِّرونَ لهيبهُ
وتُقطِّرونَ بمائه الكونيِّ
سُمَّكُمُ الزُّعافْ
في كيمياءِ وجودنا
في سيمياءِ وجوهنا
لن نمَّحيْ في قاعكمْ
نتقولبُ
من غيرِ ما شكلٍ ولونْ
أو نكهةٍ من زهرِ روضِ الاختلافْ

* * *

لن تَسلخُوا جلودَنا
عن لحمِ هذي الأرضِ
أرضِ المعجزاتْ
فكلَّما نَضجتْ نَمَتْ
وإننا لا نُرهبُ

* * *

منْ نحنُ؟!!
جوهرُ الفلاسفةِ الأُلى
ومثلما شئتمْ نكونْ
أسطورةُ الدهرِ التي لا تذبُلُ
ها نحنُ نَمْخرُ في متاحفِ شمعكمْ
مَتْنَ الضبابْ
أبداً نخبُّ في سرابِ الوهمِ
صحراءِ الأزلْ
لنا أنوفُ الصقرِ
جلدُ الأرقمِ
ولكمْ كنوزُ هذهِ الأرضِ التي لا
نستحقْ
فكُلُّنا في العارِ شرقْ
شبقونَ ثَملى
أو كُسالى خاملونْ
لكننا لم نغتصبْ يوماً
رغيفاً من فقيرْ
أو عفةً يندى لها وجهُ الضميرْ
من قهرِ عانٍ أو أسيرْ
يا أيُّها البَانونَ من أجسادنا أهرامكَمْ







المُنتشونَ بِعُرينا
سقطتْ حضارتُكمْ
على أعجازِنا
فلتستروا سَوءاتِكِمْ
ولتخرجوا من أرضِنا

*   *   *

لا تقتفوا آثارهُ
لمحمَّدٍ هذا الفضاءُ
ويعربٍ والناصريْ
للبربريْ
كم سامَ أسراهُ العذابْ
عنفَ القراءةِ والكتابهْ
إطعامَ مسكينٍ
وفكاً للرقابْ
لمحمَّدٍ هذا الفضاءُ
ويعربٍ والناصريْ
ولمَنْ على يدِكُم كفرْ
بكلِّ عاهات الحضارةِ
كلِّ أشباه البشرْ

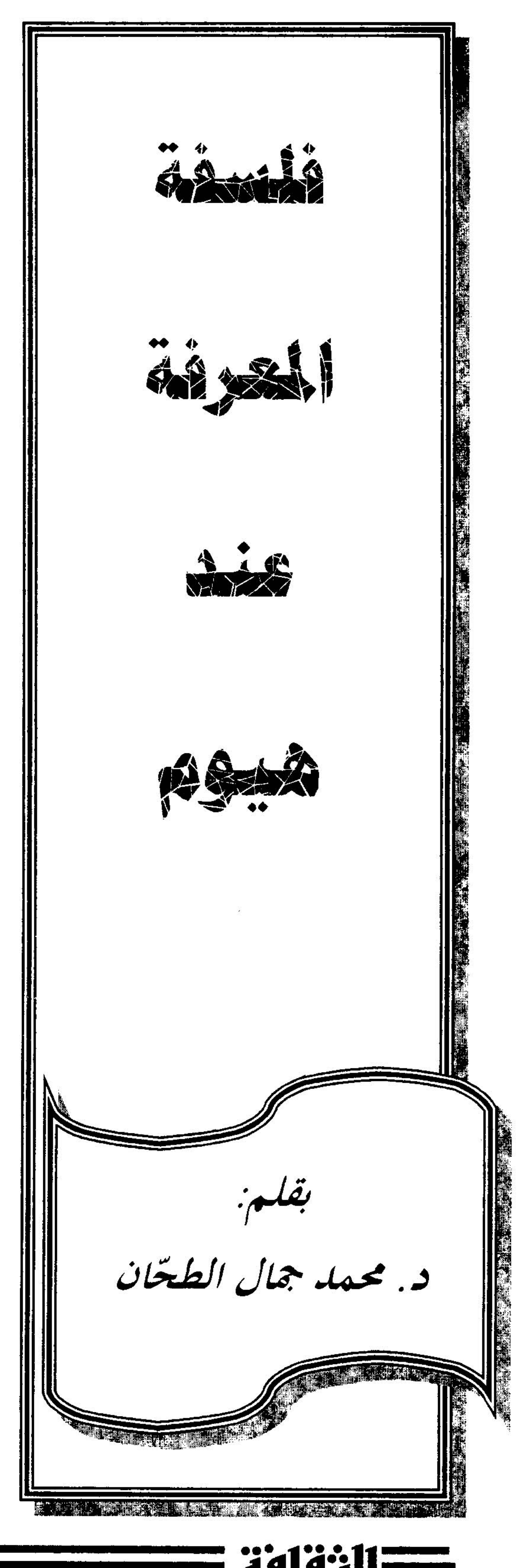
*   *   *

يتوقُ لليلِ البهيمْ
يا كهفَهُ المدفونَ في الغابات
في ثقبِ الحجرْ

*   *   *

أجلْ
أجلْ
لم تنسَ روما تأرَها
تستنسخُ الأحقادَ
من جِيَفِ الزمنْ
نارَ المجوسْ
أسطورةَ الفينيق
عارَ الآلههْ
هديرَ أقدامِ الغزاةْ
وتطوفُ بالبُسْفُورِ
مَبْكاها الحميمْ
تُرتِّلُ الأورادَ في هَذيانها
نبوءةَ العهدِ القديمْ
روما تعيشُ رُهَابَها



فلسفة المعرفة عند هيوم

بقلم: د. محمد جمال الطحّان

ولد دافيد هيوم سنة ١٧١١م لعائلة اسكتلندية عريقة في أدنبره، لم يكن غنيّاً، ولكنّه كان يملك ما يكفيه لهجر دراسة الحقوق التي أرادها له والده، والانكباب على دراسة الفلسفة والثقافة العامة. وبعد محاولة فاشلة لتعاطي التجارة في بريستول، مرّ هيوم بأزمة فكرية حادّة، وفي لحظة إشراق وجد مهنته الحقيقية. فذهب إلى فرنسا حيث وضع كتابه (المفصَّل في الطبيعة الإنسانية) الذي قوبل ببرود شديد في الأوساط الثقافية. لكنَّ ذلك لم يمنعه من نشره كتابه الشهير (تاريخ إنكلترا) الذي عوّض به الشهرة التي زاغت عنه في كتابه الأول، فعُرف بوصفه مؤرِّخاً من الطراز الرفيع.

وحين نشر هيوم (بحث في مبادئ الأخلاق) بعد أربع عشرة سنة من تاريخ نشر (المفصّل) ضمن هيوم بأن يصبح واحداً من أعظم الفلاسفة الذين حطموا الأصنام في عصره. وكان تصوره الخاص للفلسفة بأنها (علم الإنسان) التجريبي هو البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة، والتي هي في جوهرها تاريخ تطوّر تفكيره ومعارضته، إذ ينبغي أن يجري البحث في علم الإنسان بمناهج العلوم الطبيعية، أي: الملاحظة والتعميم. ولكي تصبح الفلسفة علميّة حقّاً، يجب أن تتخلّى عن أساليبها القديمة في المغالطات.

أما الملاحظات التي تتطلبها نظرية المعرفة عند هيوم فيجب -على ما يبدو- أن تجري في ميدان علم النفس الاستبطاني بشكل أساسي، فهو يرى أنّ سلوك الناس متّصل بتفسير الأهواء وبفلسفة الأخلاق، وهو أكثر اتصالاً بذلك من اتصاله بنظرية المعرفة.

إنّ حجج هيوم مبنيّة على عدد من المسلّمات العامة التي تسري خلال نظريته في المعرفة بأسرها. فهو يتفق من حيث المبدأ مع نظرية الأفكار عند لوك، وإن كان المصطلح الذي استخدمه مختلفاً. فهيوم يتحدّث عن انطباعات وأفكار بوصفها تؤلّف محتوى إدراكاتنا، وهو تمييز لا يناظر تقسيم لوك للأفكار للإحساس وأفكار للانعكاس، وإنما يتقاطع مع هذا التصنيف.

والانطباع في رأي هيوم، قد يبدأ من التجربة الحسيّة، أو من أوجه النشاط كالذاكرة.

وهو يذكر أن الانطباعات تنتج أفكاراً تختلف عن التجربة الحسية في أنّها أقلّ منها حيويّة. فالأفكار نسخ باهتة من الانطباعات التي لابدّ أن تكون قد سبقتها، في وقت ما، في التجربة الحسيّة. وعلى أية حال فإنّ الذهن عندما يفكّر، يستخدم الأفكار الموجودة فيه. وهنا ينبغي أن يفهم لفظ "الفكرة" بالمعنى الإغريقي الحَرْفي للكلمة. فالتفكير في رأي هيوم تفكير بالصور، أو تخيُّل، وهو يطلق على مجموع التجربة، سواء في الإحساس وفي التخيّل، اسم الإدراك.

هنا ينبغي علينا أن نلاحظ عدة نقاط هامة. فهيوم يسير في طريق لوك عندما يذهب إلى أن الانطباعات منفصلة ومتميزة بمعنى ما. وهكذا يرى هيوم أن من الممكن تفكيك تجربة معقّدة إلى انطباعاتها البسيطة المكونّة لها. ويترتب على ذلك أنّ الانطباعات هي أحجار البناء لكل تجربة، ومن ثَمَّ يمكن تصويرها على نحو منفصل. وفضلاً عن ذلك فلمّا كانت الأفكار نسخاً باهتة للانطباع، فإنّ كل ما يمكننا تصويره لأنفسنا في التفكير، يمكن أن يكون موضوعاً لتجربة ممكنة. كذلك نستطيع أن نستنتج من هذه الأسس نفسها أنّ ما لا يمكننا تخيّله لا يمكن، بالمثل تجربته، وهكذا فإنّ نطاق التخيّل الممكن يمتد بقدر مدى التجربة الممكنة. وهذا أمر ينبغي أن نذكره جيّداً إذا ما شئنا فهم حجج هيوم. ذلك لأنه يدعونا على الدوام إلى أن نحاول تخيّل شيء أو آخر، وعندما يتصوّر أننا – مثله – لا نستطيع أن نفعل ذلك، يؤكد أنّ الشيء المفترض لا يمكن أن يكون موضوعاً للتجربة. وهكذا فإنّ التجربة عنده تتألّف من إدراكات متعاقبة. وخارج هذا التعاقب، لا يمكننا أن نتصوّر أيّ ارتباط آخر بين الإدراكات. وهنا يكمن الفرق الأساسي بين مذهب ديكارت العقلي وتجريبية لوك وأتباعه. فالعقليون يرون أن هناك ارتباطات وثيقة بين الأشياء، وهي ارتباطات يمكن معرفتها. أما هيوم فينكر أن تكون هناك ارتباطات كهذه، أو على الأصح يذهب إلى أنها، حتى لو كانت موجودة، فمن المؤكد أننا لا نستطيع معرفتها. وكل ما يمكننا معرفته إنما هو تعاقبات الانطباعات أو الأفكار، ومن ثمَّ فإنّ مجرد التفكير في مسألة وجود أو عدم وجود ارتباطات أخرى أعمق، إنّما هو مضيعة للوقت.

* * *

في ضوء هذه السمات العامة لنظريّة المعرفة عند هيوم، نستطيع الآن أن ننظر بمزيد من الإمعان في الحجج الخاصّة التي أتى بها لإثبات بعض المسائل الرئيسة في فلسفة.

ولنبدأ بمسألة الهوية الشخصية. يبدأ هيوم بالقول إن "هنال فلاسفة يتصوّرون أننا في كل لحظة واعون بوضوح بما نسميه

(ذاتـنا)، وأننا نشعر بوجودها واستمرارها في الوجـود. وهم واثقون إلى حد يتجاوز شهادة البرهان العقلي، من هويّتها وبساطتها الكاملة. غيـر أن التجربة تثبت أن جميع الأسباب التي تساق للقول بأن الذات تكمن من وراء التجربة، لا تصمد أمام النقد، ولكن من سوء الحظ أن كل ـه التأكيدات القاطعة تتعارض مع نفس التجربة التي يستندون إلى شهادتها. إذ ما هو الانطباع الذي يمكن أن تستمد منه هذه الفكرة؟" ويبين لنا هيوم أنه لا يمكن أن يوجد انطباع كهذا، ومن ثم لا يمكن أن تكون هناك فكرة للذات.

وهناك صعوبة أخرى هي أننا لا نستطيع أن نرى كيف ترتبط إدراكاتنا الجزئيّة بالذات. وهنا يلجأ هيوم إلى طريقته المميّزة في تقديم الحجج، فيقول عن الإدراكات "إن هذه كلّها تختلف فيما بينها، ويمكن بحثها مستقلّة، كما يمكن وجودها مستقلّة، ولا حاجة بها إلى أي شيء يدعم وجودها. على أي نحو إذن ستنتمي إلى الذات وكيف ترتبط بها؟

إنني من جانبي، عندما أتعمّق إلى أقصى حد فيما أسميّه"ذاتي"، أصادف على الدوام إدراكاً معيّناً من هذا النوع أو ذاك، إدراكاً للحرارة أو البرودة، للنور أو للظل، للحب أو الكراهية، للألم أو اللذة.

ولكن يستحيل عليّ في أي وقت أن أمسك "بذاتي" هذه بغير إدراك، أو أن ألاحظ أي شيء ما عدا الإدراك. ثم يضيف بعد قليل:

"لو اعتقد أي شخص، بناءً على تفكير جاد نزيه، أنّ لديه فكرة مختلفة عن "ذاته"، فلا مناص لي من الاعتراف بأنني لا أستطيع التفاهم معه أبعد من ذلك. وكل ما يمكنني أن أقوله هو أنه قد يكون على حق مثلي، وأننا مختلفان اختلافاً أساسياً في هذه النقطة". ولكن من الواضح أنه ينظر إلى أمثال هؤلاء الناس على أنهم مرضى، ويواصل كلامه قائلاً:

"إنني لأتجاسر وأؤكد، فيما يتعلق ببقية البشر، أنهم ليسوا إلاّ حزمة أو مجموعة من الإدراكات المختلفة، التي تتعاقب بعضها وراء بعض بسرعة لا يمكن تصورّها، وتظلّ في صيرورة أو حركة دائمة".

"إن الذهن نوع من المسرح الذي تظهر فيه إدراكات عديدة على التعاقب".

ولكنّه يعود فيجعل هذا التشبيه مشروطاً:

"إن التشبيه بالمسرح ينبغي ألا يضللنا. فما يؤلف الذهن هو الإدراكات المتعاقبة وحدها، وليست لدينا أدنى فكرة عن المكان الذي تعرض فيه هذه المناظر، أو المواد التي تتألف منها".

أما سبب الاعتقاد الباطل لدى الناس بالهويّة الشخصية، فهو أننا نميل إلى الخلط بين الأفكار المتعاقبة وبين فكرة الهوية التي نكوّنها عن شيء يظل على ما هو عليه طوال فترة من الزمن. وهذا يؤدي بنا إلى فكرة"النفس" و"الذات" و"الجوهر"، من أجل إخفاء التنوّع الذي يوجد بالفعل في تجاربنا المتعاقبة.

"وهكذا فإنّ الجدل الذي يدور حول الهويَة ليس جدلاً حول الألفاظ فحسب.

ذلك لأنّنا عندما نعزو الهوية، بمعنى غير صحيح، إلى موضوعات متنوّعة أو متقطّعة، لا يكون الخطأ الذي نرتكبه خطأ في التعبير فحسب، بل يكون مصحوباً -في العادة-

باعتقاد بشيء وهميّ، إمّا ثابت غير متقطع، وإمّا غامض يستحيل تفسيره_ أو يكون على الأقل مصحوباً باستعداد لتقبُّل مثل هذه الأوهام".

ثم ينتقل هيوم ليبين كيف يعمل هذا الاستعداد، ويقدّم من خلال علم النفس الترابطي تفسيراً للطريقة التي تطرأ بها على أذهاننا تلك الفكرة التي نعتقد أنها فكرة الهوية الشخصية.

أما مصدر نظرتنا الباطلة إلى طبيعة هذه الرابطة فيكمن في استعدادنا لأن ننسب الارتباط الضروري للأطراف التي تكوّن تعاقبات معيّنة من الأفكار.

على أنّ الأفكار تتجمّع بالترابط القائم على ثلاث علاقات، هي التشابه والتجاور في المكان والزمان، والمعلوم.

وهو يطلق على هذه العلاقات اسم العلاقات الفلسفية، لأنها تقوم بدور في المقارنة بين الأفكار.وهي تناظر في نواحٍ معيّنة أفكار الانعكاس عند لوك، التي تنشأ كما رأينا عندما يقارن العقل بين محتوياته الخاصّة.

ويمكن القول إن التشابه يتدخّل – بقدر ما – في جميع حالات العلاقات الفلسفية، ما دامت المقارنة بدونه مستحيلة. ويميز هيوم بين سبعة أنواع من هذه العلاقات:

التشابه، والهوية، وعلاقات الزمان والمكان، والعلاقات العددية، ودرجات الكيف، والتضاد، والعليّة.

ومن بين هذه الأنواع يختار بوجه خاص الهوية، وعلاقات المكان الزمان،والعلية، بعد أن أثبت أنّ الأنواع الأربعة الأخرى تعتمد فقط على الأفكار التي تحدث المقارنة بينها.

ويقدم هيوم بعد ذلك تفسيراً نفسياً للطريقة التي نتوصّل بها إلى علاقة العليّة من التجربة.

فالارتباط المتكرر لموضوعين من نوع معين في الإدراك الحسي يكوّن عادةً ذهنية تؤدي بنا إلى الربط بين الفكرتين اللتين تنتجهما الانطباعات. وعندما تبلغ هذه العادة حدّاً كافياً من القوّة، فإنّ مجرّد ظهور موضوع واحد في الحس يستدعي في الذهن ترابط الفكرتين. فليس في هذا شيء حتمي أو ضروري، وإنّما العلّية، حسب تعبيره، عادةٌ ذهنيةٌ.

على أن معالجة هيوم ليست متّسقة كل الاتساق.

ذلك لأننا قد رأينا من قبل الترابط، من حيث هو تفسير لطريقة تولّد العادات الذهنية، أداة مفيدة للتفسير السيكولوجي، ما زال لها تأثيرها الهام.

* * *

من الواضح قطعاً أن ضرورة الارتباط بين العلة والمعلول، كما يطالب بها العقليون، لا يمكن أن تُستخلص من نظرية المعرفة عند هيوم. ذلك لأننا مهما صادفنا من تجمعّات دائمة ومنتظمة، لن نستطيع أن نقول في أية مرحلة أن انطباع الضرورة قد أضيف إلى تعاقبات الانطباعات. وهكذا يستحيل قيام فكرة عن الضرورة. ولكن لما كان بعض الناس عقليين، وميّالين إلى الرأي المخالف، فلا بد أن تكون هناك آلية نفسيّة هي التي تضلّلهم. وهنا بالضبط يأتي دور العادات الذهنية.

فالـتجربة تعودّنـا على أن نرى النتائج تترتب عـلى أسـبابها العديدة، بحيث ننقاد في نهاية المطـاف إلى الاعتقاد بأنّ الأمر لابدّ أن يكون كذلـك. ولكـنّ هذه الخطوة الأخيرة هي التي يسـتحيل تـبريرها إذا مـا قبلنا مذهب هيوم التجريبي.

يخـتم هيـوم مناقشـته للعلية بوضع "قواعد نحكم بها على العلل والمعلولات". وهو هـنا يسـتبق بمائة عام قواعد الاستقراء عند جـون استوارت مل. ولكن هيوم يستعيد، قبل عـرض هـذه القواعـد، بعضـاً من السمات الرئيسية لعلية. فهو يقول: "إنّ أيَّ شيء يمكنه أن ينـتج أيَّ شيء"، وبذلك يذكّرنا بعدم وجود مـا يسمى بالارتباط. أما القواعد ذاتها فعددها ثمانيـة. أولهـا تنص على أن "العلّة والمعلول ينـبغي أن يكونـا مـتجاورين فـي المكـان والـزمان". والـثانية هي أن "السبب يجب أن يسبق النتيجة". والثالثة هي أن من الضروري وجـود تلازم دائم بين السبب والنتيجة. وتلي ذلك عدة قواعد فيها استباق لقوانين مل. ففي القـاعدة الربعة، يقول إن السبب الواحد يُنتج دائمـاً نتيجةً واحدة، وهو مبدأ يقول هيوم إننا نستمده من التجربة. وتترتب على ذلك القاعدة الخامسـة، التي تقول إنه حيثما يكون لأسباب مـتعددة نتيجة واحدة، لابد أن يحدث ذلك عن طـريق شيء مشترك بين هذه الأسباب جميعاً. وبالمـثل نسـتدل على القاعدة السادسة التي تقـول إن الاخـتلاف فـي النتيجة يكشف عن اختلاف في السبب.

إنّ النتيجة التي يؤدّي إليها بحث هيوم لـلمعرفة هي موقف الشك. ولقد رأينا من قبل أنّ شـكّاكي العصـور القديمة كانوا معارضين لأصحاب المذاهب الميتافيزيقية.

على أن لفظ "الشكّاك" لا ينبغي أن يُفهم بالمعـنى الشعبي الذي اكتسبه منذ ذلك الحين، والـذي يوحي بنوع من التردد المزمن، فاللفظ اليوناني الأصلي يعني، ببساطة، شخصاً يبحث بعـنايةٍ ودقّة، فعلى حين أن أصحاب المذاهب كـانوا يشـعرون بأنّهم وجدوا إجاباتهم، كان الشُكّاك أقلَّ تأكّداً، ومن ثم فقد واصلوا البحث. ولكن بمضي الوقت أصبح الاسم الذي يُعرفون بـه يدل على افتقارهم إلى الثقة، أكثر مما يدل عـلى اسـتمرارهم فـي البحث. وبهذا المعنى كانت فلسفة هيوم شكّاكة. ذلك لأنه، كالشكّاك، توصـل إلى الـنتيجة القائـلة إن هناك أشياء معيـنة نأخذها في حياتنا اليومية قضية مسلماً بها، بينما لا يمكن تبريرها على أي نحو.

وبالطـبع ينـبغي ألاّ يتخيّل المرء أن الشـكاك عاجز عن أن يتخذ موقفاً محدداً إزاء المشاكل الجارية التي تواجه خلال مسار الحياة اليومية. ولذا فإن هيوم، بعد أن عرض موقف الشـك، صرّح بوضوح قاطع بأن هذا لا يؤدّي إلى الوقوف في وجه أعمال المرء العادية: "لو سئلت هنا عما إذا كنت أوافق بصدق على هذه الحجـة، الـتي يبدو أنني أجهد نفسي من أجل دعمهـا، وعما إذا كنت بحق واحداً من هؤلاء الشكّاكين الذين يرون أنّ كل شيء غير مؤكد، وأنّ حكمنا على أي شيء لا يتّسم بأي قدْر من الحقيقة أو البطلان، لأجبت إن هذا السؤال لغو فـي صـميمه، وأنـني لم أكن أبداً أقول بهذا الرأي".



ما جئتُ لألقي سلاماً بل سيفاً

شعر: وداد طويل عبد النور

أيُّهــــا الآتــــي عــــلى جُــــنْحِ الغمامَــــةْ..

قــــد مضــــى ألفــــانِ مــــا جِــــئْتَ إلامَ؟؟

مِشْــــعَلُ الــــروح عــــلى الــــدرب فِــــداً

وجفــــونُ القــــلبِ تــــأبى أن تــــناما..

* * *

مُــــذْ صَــــعَدْتَ والــــبرايا فــــي اقتــــتالْ

قَــــدْ ذوى الإيمــــانُ مــــن وهــــج الضــــلالْ

واســــتُبيحَ الكــــرمُ واغــــتيلَ الجمــــالْ

لســــت ترضــــى الشــــوكَ يغــــتالُ الخــــزامى

جَــــرِّدِ الســــيفَ ولا تخــــشَ الملامــــا

مــــن لــــنا إلاّكَ كــــي تُــــلقي الســــلاما؟؟

* * *








يـــا مـــليكَ العـــدل يـــا رمـــز الـــنقاءْ..

جَـــفَّ يُنْـــبوعُ المحـــبَّةْ والعطـــاءْ

وارتـــدى الأشـــرارُ ثـــوبَ الأتقيـــاءْ

فـــانذوى الأبـــرارُ يأْســـاً وانهـــزاما..

جـــرِّد الســـيفَ ولا تخـــشَ الملامـــا

مـــن لـــنا إلاَّكَ كـــي تُـــلقي الســـلاما..

*　　*　　*

مـــن خَوابـــي الخَـــلِّ مُـــراً قـــد سَـــقُوكْ..

وبأشـــوْاك الـــبراري كلَّـــلوكْ..

وعـــلى عـــودِ الخطايـــا ســـمَّروكْ

كيـــف لإبـــنِ اللهِ جـــوراً أن يُضـــافا؟؟

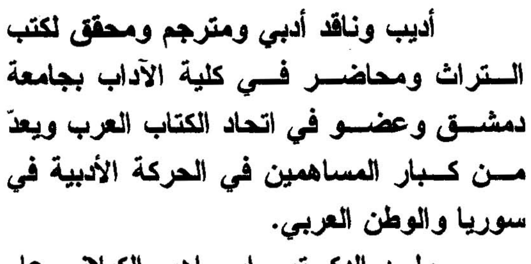
جَـــرِّدِ الســـيفَ ولا تخـــشَ الملامـــا

مـــن لـــنا إلاَّكَ كـــي تُـــلقي الســـلاما..




الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني

بقلم: يوسف عبد الأحد



أديب وناقد أدبي ومترجم ومحقق لكتب التراث ومحاضر في كلية الآداب بجامعة دمشق وعضو في اتحاد الكتاب العرب ويعدّ من كبار المساهمين في الحركة الأدبية في سوريا والوطن العربي.

ولد الدكتور إبراهيم الكيلاني عام ١٩١٦ بدمشق، والده السيد وجيه فارس الكيلاني.

تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس دمشق ونال شهادة البكالوريا، ثم سافر إلى باريس وتابع دراسته الجامعية في جامعة السوربون ونال شهادة الدكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٨.

عاد إلى دمشق وعمل مدرساً للأدب العربي في ثانوياتها، ثم عيّن في وزارة الثقافة مديراً للتأليف والترجمة والنشر مدة اثني عشر عاماً بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٥٣.

انتدب من قبل الحكومة السورية للإشراف على إدارة الدروس العربية في الكلية العلمانية الفرنسية (اللاييك).

رأسَ تحرير مجلة الآداب الأجنبية التي مازالت تصدر عن اتحاد الكتاب العرب مدة سبع سنوات، وهو عضو في هيئة تحرير مجلة التراث العربي ونال جائزة تقديرية من اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٩٣.

شغف في مطلع شبابه بدراسة فن السيرة والتراجم الذاتية لحياة العظماء والنوابغ وتحليل نفسياتهم، وهذا النوع الأدبي يجمع بين البحث التاريخي والقصص ولذلك كانت معظم مؤلفاته تتسم بطابع السير لأعلام العرب والأجانب.

نشر دراسات قيمة عن حياة وأعمال عدد من الأعلام المعاصرين من شعراء وأدباء نذكر منهم (خليل مردم بك، شكري فيصل،

محمد البزم، مي زيادة، أحمد الصافي النجفي، معروف الرصافي وغيرهم..) كما حقق طائفة من كتب التراث العربي وقام بترجمة بعض الكتب الأدبية الفرنسية إلى العربية بدقة في الصياغة والتعبير.

تكريم الدكتور إبراهيم الكيلاني

أقام الأستاذ الأديب مدحة عكاش صاحب مجلة الثقافة بالتعاون مع وزارة الثقافة وتحت رعاية الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة سابقاً حفلة تكريم للأديب إبراهيم الكيلاني في مكتبة الأسد بتاريخ ٢٢ آذار ١٩٩٤، وتبارى في هذا الحفل نخبة من الأدباء والشعراء الذين عددوا مآثره وأعماله الإبداعية المتميزة الموضوعة والمترجمة والمحققة، وهم الدكتور بديع حقي، الدكتور رفيق جويجاتي والأدباء عبد الكريم ناصيف ونصر الدين البحرة وعبد المجيد عرفة والأديبة ألفة الأدلبي والأديبة سعاد ميرزا.

وردّ المحتفى به على هذا التكريم بالشكر والعرفان، ومما جاء في كلمته:

"إننا في زمن عمد القائمون على وسائل الإعلام والمؤسسات العلمية والثقافية في الوطن العربي إلى افتقاد حملة الأقلام والإشادة بهم في حياتهم بعد أن كانوا غير مكترثين بهم. فلعل في هذه السُّنة التي ابتدعها الأستاذ الأخ مدحة عكاش في تكريم الأدباء الأحياء الشباب منهم والمخضرمين ما يبعث الأمل في نفوس الجيل الرديف ويثبت إيمانهم بوطن يتذكر أبناءَه بعد نسيان ويرعاهم بعد إهمال".

ونورد بعض ما قاله الأدباء في هذا الحفل.

الأديبة السيدة ألفة الأدلبي

".. الدكتور إبراهيم الكيلاني دعامة سامقة في أدبنا العربي المعاصر وقد أغنى المكتبة العربية بخمسة وأربعين كتاباً بين تأليف وتحقيق وترجمة.."

الدكتور بديع حقي

".. علمني الدكتور إبراهيم أن الصداقة أثمن من الحب، لأن الحب يأخذ ويستبد ويستأثر، في حين أن الصداقة تبذل وتعطي بلا مقابل.. ويظل الوفاء الخالص الصفة الثانية الراسخة في خلق إبراهيم.."

الشاعرة سعاد ميرزا

يا حاملاً أدباً يفوح أريجه
في كل شبر من ثرى أوطاني
يكفيك في أن تكون منارة
للعلم للتاريخ للأزمان
مهلاً أمير الحرب إنك صغته
من نسج علم ناصع الألوان
فنّدت أفكار الألى صنعوا العلى
وسموت في علم على الأقران
وتركت للأجيال هدي خطاهم
حين اعتليت مدارج العرفان

* * *

هذه لمحة خاطفة عن أدب وأعمال أديبنا الجليل الدكتور إبراهيم الكيلاني، أطال الله عمره ليتابع مسيرة نشاطاته وأبداعاته الرائعة الخالدة.

مؤلفاته المطبوعة

أ- التأليف

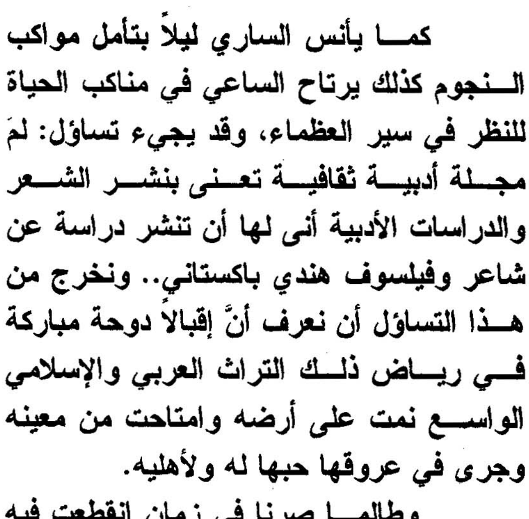
١-الحجاج الحاكم والخطيب ١٩٤٤.
٢-الأدباء العشرة ١٩٤٥.
٣-الوجيز في الأدب العربي ١٩٤٦.
٤-عبقريات شامية ١٩٤٦.
٥-أديبات من الغرب ١٩٥٥.
٦-أبو حيان التوحيدي ١٩٦٠.
٧-أدباء من الجزائر ١٩٦٢
٨-العالم السينمائي وصلته بالثقافة والفن ١٩٦٠.
٩-محمد البزم شاعر العربية ونحويها ١٩٦٩
١٠- الأوراق ١٩٦٩.
١١- شخصيات ١٩٧٣.
١٢- معروف الرصافي ١٩٧٨.
١٣- الشاعر أحمد الصافي النجفي.
١٤- شخصيات وصور أدبية ١٩٩٣.
١٥- أسمار وأحاديث ١٩٩٥.
١٦- أخلاق الأدباء ١٩٩٧.
١٧- الأوراق - مقالات مختارة في الأدب والفن والاجتماع - منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٣.

ب- تحقيق التراث

١- أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ليوسف البديعي ١٩٤٤.
٢- مثالب الوزيرين لأبي حيّان التوحيدي ١٩٦١.
٣- الصداقة والصديق لأبي حيّان التوحيدي ١٩٦١.
٤- البصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيدي (٧ مجلدات) ١٩٦٤- ١٩٧٠.
٥- تسع رسائل لأبي حيّان التوحيدي - ١٩٧١.
٦- ثلاث رسائل لأبي حيّان التوحيدي ١٩٥١
٧- الامتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي (مجلدان) ١٩٧٨.
٨- رسائل أبي حيّان التوحيدي ١٩٩١.

ج- الترجمة

١- تاريخ الأدب العربي للمستعرب ريجيس بلاشير - ١٩٨٤ (٣مجلدات).
٢- الجاحظ للمستعرب شارل بللا ١٩٨٥.
٣- توباز مسرحية لمارسيل بانيول ١٩٦١.
٤- كنوك أو انتصار الطب - مسرحية لجول رومان ١٩٦٢.
٥- تاريخ السينما في العالم - لجورج سادول ١٩٦٨.
٦- العمال الجزائريون في فرنسا ١٩٨٠.
٧- أبو الطيب المتنبي للمستعرب ريجيس بلاشير ١٩٨٥.
٨- الغزل عند العرب لجان كلون (مجلدان) ١٩٨٥.
٩- النقد الكلاسيكي أعلامه وأصوله لألبرت تيبودية ١٩٨٩.
١٠-إسرائيل والصهيونية السياسية لروجيه كارودي ١٩٨٤.
١١-الأدب الجزائري المعاصر (المكتوب بالفرنسية) لجان ديجو ١٩٩١.



محمد إقبال فيلسوف الذات وشاعر العشق..

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

كمـا يأنس الساري ليلاً بتأمل مواكب الـنجوم كذلك يرتاح الساعي في مناكب الحياة للنظر في سير العظماء، وقد يجيء تساؤل: لمَ مجـلة أدبيـة ثقافيـة تعـنى بنشـر الشـعر والدراسات الأدبية أنى لها أن تنشر دراسة عن شاعر وفيلسوف هندي باكستاني.. ونخرج من هـذا التساؤل أن نعرف أنَّ إقبالاً دوحة مباركة فـي ريـاض ذلـك التراث العربي والإسلامي الواسـع نمت على أرضه وامتاحت من معينه وجرى في عروقها حبها له ولأهليه.

وطالمـا صرنا في زمان انقطعت فيه الأوصـال والوشائج وصنعت الحضارة الضيقة الحواجـز والحـدود فضيقت الأوطان وحجبت مدى البصر ودفنت عمق البصيرة.

ونحـاول في هذه الدراسة المتواضعة أن نصل ما انقطع ما بين أبناء الأمة الواحدة، فقـد جاء جيل جديد من الأدباء ثقافتهم ضحلة فـي لغـتهم الثرة وبعدوا كل البعد عن ينابيع الـتراث الفـني، فـبعدوا عن أصالتهم، لذلك ارتـأيتُ مـن الحكمـة أن أذكر مثالاً للأصالة الذاتية، محمد إقبال شاعر مفكر قلَّ من يشبهه في سعة الإطلاع على ثقافات الغرب مع التعمق المتـبحر في التراث العربي، محلق في سماء الشـهرة. وترجم له كبار المستشرقين وقدموه عـلى معاصـريهم، حتى أن المستشرق لويس ماسـنيون فضـله عـلى طـاغور في العمق والموهبة.

نشـأ محمد إقبال في بلد نام على حد التعـبير الحديث كالبلاد العربية، ومع ذلك كان معـتداً بشخصـيته وعـلمه وتراثه وقيم هذا الـتراث إلى أن صـار كوكباً منيراً في سماء التراث العربي الإسلامي.

في عام ١٨٧٧ولد محمد إقبال لأسرة كشـميرية الأصـل برهمية المحتد أسلمت قبل

عــدة قــرون فـــي زمـــن السلطان زين الدين بودشـــاه، ثــم هاجـــرت إلى البنجاب لطبيعتها الفاتـــنة، ففرح بقدومه أبوه الشيخ نور محمد وأمـــه إمام بيبي، واختاروا له اسم محمد إقبال وتمـــنا أن يكون لـــه شأن بإقباله، وعكفا على تنشـــئته وتربيـــته كأفضـــل مـــا تكون التربية والتنشـــئة، وبـــرزت ملامح الذكاء المتقد منذ يفاعته إلى أن دخل كلية سيلكوت ودرس فيها عـــلى يد عالم مشهور مشهود له بالفضل وهو مولانـــا ميـــر حســـن فأتقن من الأدب العربي والفارســـي، ثم انتقل إلى كلية الحكومة بمدينة لاهور حاضرة البنجاب، فبرز بين أقرانه وحاز على عدة جوائز وعندما تخرج درس في نفس الجامعـــة الفلسفة واللغة الإنكليزية، وفي سنة ١٩٠٥ ســـافر إلى أوروبـــة شـــغفاً بالتحصيل العـــلمي العالي ورغبة في الاطلاع على مظاهر حضارة الغرب فنال شهادة الفلسفة من جامعة كمـــبردج، ثم تحول إلى ألمانيا ونال الدكتوراه فـــي الفلســـفة وعاد إلى انكلترة وحصل على الحقـــوق من جامعة لندن، وخلال ذلك كله كان يـــلقي المحاضـــرات وكـــانت تبدو عليه بوادر فلسفته العالية.

عودته إلى موطنه

عـــاد إقـــبال من أوروبة عام ١٩٠٨ ولقـــي استقبالا حافلاً وعرضت عليه المناصب الحكوميـــة فأعـــرض عـــنها لأنه نزيه عفيف الـــنفس، يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور، كما عـــبر عـــن ذلـــك في بيت من ديوانه (رسالة المشرق) قال:

أنا لا أتحمل دلال الملوك
ولا جرح الإحسان
يا من انخدعت بالطمع
انظر إلى همة هذا الفقير

وانصـــرف إلى الفكـــر والأدب فصنف ديوانين بالفارسية وهما (أسرار خودي ورموز يـــنحودي) فنالا إعجاباً عاماً، وترجم الأول إلى الإنكليزية فزاع صيته في أوروبة وأمريكا، ثم توالى إنتاجه الفكري وتلاحقت ترجماته، ومن أشـــهر دواويـــنه (رسالة المشرق) وقد ترجم بعنوان زنابق سيناء.

وفـــي ســـنة ١٩٢٦ رشحه أصدقاؤه عضـــوا عـــن إقـــليم بـــنجاب وسعى لتخفيف الضرائب عن كاهل الفلاح الهندي وأجرى عدة إصلاحات. وفي سنة ١٩٣١ انتخب عضوا في مجـــلس المـــائدة المســـتديرة المنعقد في لندن لإصلاح دستور الهند.

زيارته للقدس

وعـــند عودتـــه مـــن لندن زار مصر والقـــدس فخاف من مطامع الصهاينة الماكرة، وقد سكر إقبال بمحبة العرب ودينهم فقال:

إسمعهمو يارب ما ألهمتني
وأعد إليهم يقظة الإيمان
وأذقهم الخمر القديمة إنها
عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي اللون لكن خمرتي
صنع الحجاز وكرمها الفنيان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم
لكن هذا الصوت من عدنانِ

وزار أفغانســـتان وساهم فـي تأسيس جامعة كابل.

فلسفة شعره

ترجم ديوانه جاويد نامه إلى الإيطالية بعـــنوان أشـــعار سماوية فقد بارى به شاعر إيطاليـــة دانـــتي في ملهاته المشهورة، وهكذا كـــان إقـــبال من أكبر شعراء عصره وأوسعهم

أفقا وأعمقهم شعورا وأشدهم سموا، فقد تضافرت له الثقافة الواسعة والموهبة الشعرية النادرة والفلسفة المتأملة الواعية والإيمان العميق الرقيق في تكوين هذا المفكر الفيلسوف المصلح الشاعر الملهم، كتب الشعر بالفارسية والأردية وكتب البحوث الفلسفية والاجتماعية والسياسية بالانكليزية، وكان يتقن الألمانية والفرنسية والعربية والسنسكريتية.

وكان شاعرنا متأثرا بفريد الدين العطار وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي وابن عربي، فهم الأعلام البارزون في فكرهم وفلسفتهم وإبداعهم.

الشرق والغرب في شعر إقبال

استاء إقبال من حال الشرق المرير المتخلف كما استاء من حال الغرب المادي المسيطر على الشعوب فوجده مفعماً بالحركة ولكنه مجرداً من المبادئ الخلقية والإنسانية وفقيرا من الحب والإيمان فنذر فكره وقلبه وقلمه للإصلاح والتنديد بالغزو والاستغلال فقال:

في الغرب العقل مصدر الحياة
وفي الشرق الحب قوام الحياة
إنما يدرك العقل الحقائق بالحب
فيثبت مكاسب الحب
بالتوفيق بين العقل والحب

وهكذا بقي إقبال لا يرى حوله مشكلة إلا أولاها قبسا من فكره وأضاءها بسنا من أبياته، قال منددا باستغلال الإقطاعي والرأسمالي مخاطباً العامل منبهاً على مكانته:

أيها العامل الذي ابتلعه الرأسمالي المحتال
لقد غيرت حالتك قرونا على الغصون الواهية
يدك هي الخالقة للثروة
ومع ذلك تمتد للحصول على الأجر
لقد أطعمك ساحر الموت أوراق الحشيش
فظننتها أيها الغافل سكر النبات
لقد سيطر عليك الرأسمالي بالحيل الماكرة
فغلبت أيها العامل على أمرك بكل سذاجة
تيقظ لأن أسلوب محفل العالم قد تبدد
وابتدأ شأنك الآن في الشرق والغرب

وقال منددا بطغيان بعض الحكومات على رعاياها:

"إن اليوم ما يزال الإنسان شر فريسة لصيد الحكام".

"وإنها لقيامة كبرى أن يبق الإنسان فريسة الإنسان".

وإقبال الذي أحب لغة العرب وفتن بها ولا عجب فهي لغة القرآن الكريم ولغة السماء، زيادة على كونها لغة العرب فتمنى أن تصل أصواته إلى مسامع العرب ليجمعوا شملهم ويعودوا أمة واحدة بعد تفرقهم فقال:

كل شعب قام يبغي نهضة
وأرى بنيانكم منقسماً
في قديم الدهر كنتم أمة
لهف نفسي كيف صرتم أمماً

وعندما تقطعت أوصال البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى وتوزعها الغزاة قال:

"إن سقط جبل من المآسي على العرب فلا حاجة إلى العويل، وإن الفجر لا يطل إلا بعد فناء آلاف النجوم"

ولكنه تفاعل في وحدة الصف العربي فقال:

أنا بشير زنابق الربيع
يتوقد ضرام الحب في قلبي
لا تأنف مني اليوم إن وجدتني وحيدا
سوف تتوالى قوافل الورد تترى من بعدي

إقبال وحب الإنسان للإنسان

وكما عرف عن إقبال إنه شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير عرف أيضاً أنه شاعر العشق وفيلسوف الذات وشاعر المحبة الإنسانية اتجه إلى الإنسان وجلى عن ذاته الصدأ وبث فيه روح المحبة والعشق، فالعشق عند إقبال أشعل في قلبه الجمرات وبعث الرغبات، وله قطعة شعرية عنوانها (كلمة الحب) فيها:

"عندي خبر هذه الكلمة، هي جذوة القلب، هي سر وليس بسر، ألا أنبئك بمن سمعها وأين سمعها، لقد سرقها الندى من السماء، وأوحى بها إلى الوردة، وسمعها الليل من الوردة، وحملها نسيم الصبا من البلبل".

وأبدع في مقطوعة (الفراشة المحترقة) وعبر فيها عن لذة الوصال الحقيقي فلحظة الاحتراق أفضل من العيش أعواماً دونه قال:

أحب احتراقي بنار اشتياقي
ولا أرتضي عيشة الخاملين
فناء الفراشة في النار يعلو
حياة الجبان طوال السنين

وقال:

معنى احتراق القلب في الإخلاص
أن القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحولت الفراشة شعلة
لما أن احترقت فصارت نارا

هذا الاحتراق هو احتراق الحب، الحب المسكر المصطلم، حب الإنسان لأخيه الإنسان حتى لا يكون في الأرض ظلم، ولا استغلال ولا طغيان فانتشى ثملاً بهذا الحب:

لم أَلْقَ في هذا الوجود سعادة
كمودة الإنسان للإنسان
لما سكرت بخمرها القدسيّ لم
أحتج إلى تلك التي في الحان

خلود الحياة في فلسفة إقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسيماً عظيماً وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان يبدو في عين إقبال ضئيلاً متلاشياً، فيذكرنا إقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا المماليك وأداروا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم فهو في قصيدته الشكوى يقول:

بمعابد الإفرنج كان آذاننا
قبل الكتائب يفتح الامصارا
لم تنسى أفريقيا وصحراؤها
سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا
لم نخش يوماً غاشماً جبارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة
خضراء تنبت حولنا الأزهارا

ثم يقول:

لـــو أن أســـاد العـــرين تفـــزعت
لـــم يـــلق غيـــر ثباتـــنا الميـــدان
وكـــأن نيـــران المدافـــع في صدور
المؤمـــنين الـــروح والـــريحان

نظرة إقبال لهجر الحبيب

كـــان الشعراء دائماً يتفننون بالوصال ويذمـــون الفـــراق ويتـــبرمون مـــن الأسفار ويحمدون الإقامة الهانئة وإنا لنعجب من إقبال فهـــم فـــي وادي وهو في واد آخر فهو يحب الرحلة والتجوال ويطرب لدمدمة الرعود وأزيز المـــراجل وصخبة الأمواج ويجد لذة في الهجر والفراق فيقول:

الوصـــل فـــي الحـــب غـــال
وقيمـــة الهجـــر أغـــلى
الوصـــل حـــلو ولكـــن
عواقـــب الهجـــر أحـــلى
فـــي القـــرب مـــوت الأمـــاني
والعيـــش فيـــه فـــناء
والـــبعد فيـــه حيـــاة
يذكـــي ضـــياها الـــرجاء

موقف إقبال من فقراء الصوفية

دائمـــاً نـــرى محمـــد إقبال يدعو في قصـــائده الصـــالحين الذين جلسوا في زواياهم إلى الحيـــاة ولا يـــتركوها ويبـــنوا الصـــوامع والزوايا والتكايا فقال:

يا عبيد الماء والطين اسمعوا
ما هو الفقر الغني الا رفع
هو عرفان طريق العارفين
وارتواء القلب من عين اليقين
ذلك الفقر عزيز في غناه
هامة الجوزاء من أدنى خطاه

وقال:

يـــا غريـــباً عـــن مقام المصطفى
عـــد إلى الحـــق تجـــد نـــور الصفا

وهكـــذا كـــان محمـــد إقبال أعمق في العصر الحاضر وكانت نظرته الخارجية تنسجم مـــع العـــلوم الحديثة ويدعو أمته للعلم لتصنع امـــتن الأسس لتقدمها مع البقاء على الالتزام بالمـــبادئ الأخلاقيـــة لتبقى الحياة منظمة في جميع الأزمنة والغاية من كل ذلك بناء الإنسان والإنسان فقط.

فهو حري بالذي قاله جواهر لال نهرو بحقه:

"لقـــد دهتني وفاة إقبال بصدمة هائلة ولقـــد فقـــدت الهند بوفاته كوكبا مضيئاً ولكن شـــعره سيخلد في قلوب الأجيال الآتية وذكراه العظيمة لن تموت.

وقال الدكتور محمد علم:

"لا تســـتطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً في عصور طويلة".




مِسْكُ اللَّيلِ..

شعر: ابن زهر الإشبيلي

شَـابَ مِسْـكَ الـلَّيْلِ كـافورُ الصَّـباحْ

وَوَشَـتْ بالـروْضِ أَعْـرافُ الـرِّيَاحْ

* * *

فاسْـقينيهَا قـبلَ نُـورِ الفَـلَقِ
وغـنَاءِ الـوُرْقِ بيـنَ الـوَرَقِ
كاحْمِـرارِ الشـمْسِ عـندَ الشـفقِ

نَسَـجَ المـزجُ عـليها حيـنَ لاحْ

فـلكَ الـلَّهْوِ وشـمْسَ الاصْـطبَاح

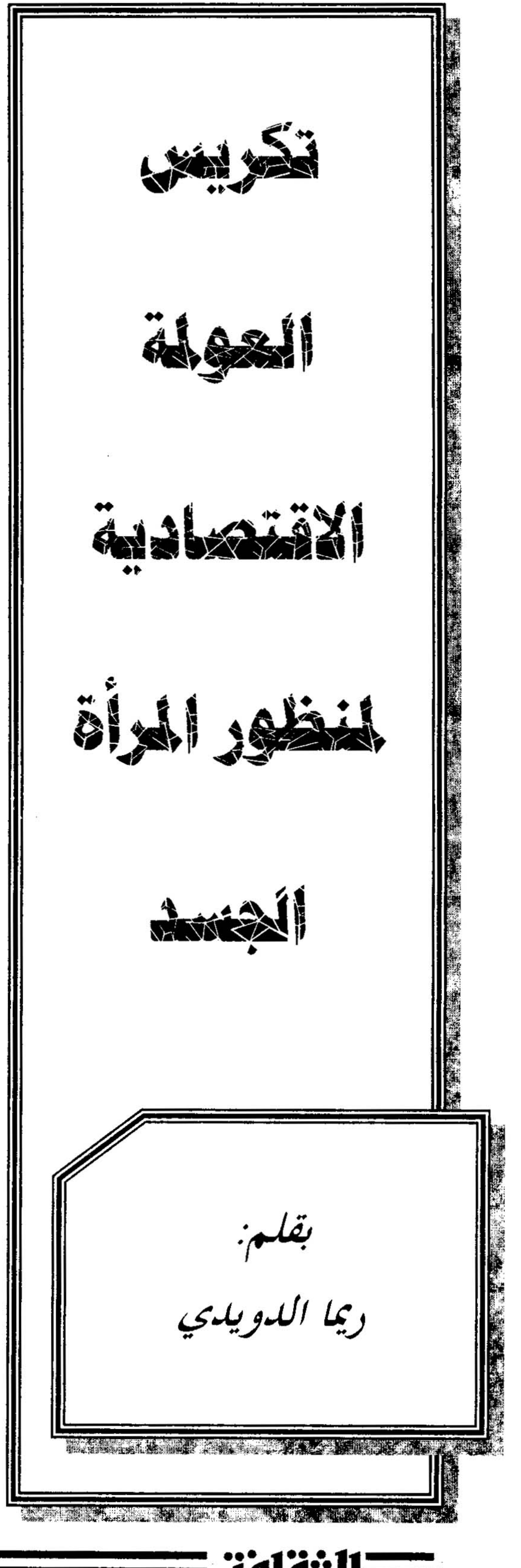
* * *

وغـزالٍ سـامَني بالمـلَقِ
وبَـرَى جِسْـمي وأَذْكى حُـرَقي
أَهْيَـفُ مُـذْ سَـلَّ سَـيْفَ الحـدَقِ

قَصَّـرَتْ عَـنْهُ مشـاهيرُ الصِّـفَاحْ

وانْثَـنَتْ بالذُّعْـرِ أَغْصَـانُ الـرِّمَاحْ



"يا نساء العالم إحذرن من المخرجين والمنتجين فإنهم يريدون أن يتاجروا بأجسادكن"
(مارلين مونرو)

يـراه الأغنياء نظاماً يوفر أطراً جديدة واسـعة للتـنافس وتحقيـق رفاهية الشعوب، ويـراه الفقـراء نظامـاً مجحفاً بحق البسطاء يفـرض سـلطة الأقوى وغلبته. إنها العولمة: نظـامٌ عـالمي جديـد يفـرض زوال الحدود وانكسـار الحواجـز مـع سيطرة اقتصاديات السوق الحر، لكنها وفي جميع الظروف لم تعد اختياراً نملك رفاهية قبوله أو رفضه.

وكـان مـن شروط العولمة صندوق الـنقد الدولـي ومنظمة التجارة العالمية وهي مؤسسـات تحـل عـلى الصعيد العالمي محل الدولـة الوطـنية الـتي سيّرت اقتصادها بما يسـمى التكيف الهيكلي والانكماش الاقتصادي بمعـنى تحديد رقعة الاستثمار، وبالتالي زيادة الـبطالة، فكانت النساء الضحايا الأول خاصةً بعد بيع مؤسسات القطاع العام للقطاع الخاص. وكانت زيادة الأمية في أوساط النساء، وزيادة الفقر الذي بلغ مليار و٣٠٠ مليون فقير مدقع فـي العالم، منهم ٩٠٠ مليون امرأة فقيرة أي ٧٠% ، وتعمـل النساء اللواتي يشكلنّ نصف سـكان العالم للعمل ثلثي ساعات العمل بأجرة تصـل لواحـد على عشرة من أجور تدفع في العـالم، وقد تساوي واحد على مئة من ثروة العالم.

وبعد أن حولت العولمة العالم إلى مصنع وسوق، كرست مفهوم المرأة الجسد واختارت لها وسيطاً بينها، ليس بفضل إمكانياتها الفكرية وقدراتها المهنية، إنما عبر توظيف الجسد لضمان التصاعد المستمر للرغبات الاستهلاكية بواسطة الترويج للمنتوجات والسلع، وحوّلت بالتالي الجسد الأنثوي لوحدة اقتصادية تعمل على جلب الفائدة وتعظيم الربح، نازعةً بذلك القداسة عن الجسد من خلال تحييد المضمون الأخلاقي لوظيفة المرأة التي صارت ترغب العمل بوظائف مسيئة وهامشية بعد أن ترسخ مفهوم حدود الجسد الأنثوي وامتيازاته عن طريق تسويق الجسد، وكمثال عموا النحافة، فصارت المرأة الباربي المطلوبة، ومن أجل أن يسود نموذج الباربي في العالم ابتكروا صناعة تناسب الجسد المعولم من مساحيق وأدوية وجراحات تجميلية وموضة، ففي كل فصل تتغير الموضة مرتين أو ثلاث ليس بهدف أن تبدو المرأة جميلة إنما لتكسب شركات عرض الأزياء وشركات المساحيق..الخ، حتى الأدوات المنزلية صار لها موضة تعرض يومياً بالبرامج التليفزيونية أو يقدم لها دعايات حتى بلغ عدد ما يشاهده الإنسان في العالم ٢١ ألف إعلان تليفزيوني، فكل شيء معروض للتسويق، وكل شيء معروض للتسويق، وكل شيء معروض للبيع..

وفي عصر العولمة أصبح الجسد جزء من ثقافة العولمة ومن ثقافة الصورة، وأخطر ما جاء في ثقافة الصورة: حضور الجسد في العالم كله، وتداوله بوصفة سلعة استهلاكية، ومع تقدم فنون الإعلام والتجميل ومسابقات ملكات الجمال، تقدمت فنون صناعة الجسد وفنون الاهتمام بالمتع على أنواعها المختلفة، وأصبح رجال الفن والإعلان والسياسة وغيرهم يقدمون باعتبارهم أجساداً جميلة قبل أي اعتبار آخر.

لم يعد جمال الجسد الأنثوي مرتبطاً بوظيفة كإنجاب وإرضاع وأمومة وخصب وحنان، أصبحت المقاييس المثالية للجمال هي الإثارة، وهنا تدخلت الثورة التقنية لتحول نصاعة الجمال لنوعٍ من البيزنس، ولذلك نشاهد انتعاش صناعة الأنظمة الغذائية الخاصة والرياضة...الخ، ونشاهد أيضاً تعميم النموذج المثالي لجسم المرأة ومعاييره ومقاييسه، وما يجب أن يظهر منه أو يختفي عبر مئات الآلآف من الصور وعروض الأزياء والأفلام وأغلفة المجلات..الخ، وأخطر ما في الأمر أن جسد الأنثى أصبح مثالاً يمكن أن يتحول إلى حقيقة، ليس من خلال تطبيق نظام غذائي، بل من خلال الجراحة التجميلية، وفي عام ١٩٩٨ شهدت الولايات المتحدة إجراء ما يقارب ثلاثة ملايين عملية تجميل لا تشمل التشوهات الخلقية، بل عمليات تجميل محصورة فقط في الشد والحقن، تكبير الصدر، تصغيره، عمليات تغيير الجلد ..الخ.

أصبح الجسد وليس المؤهلات الأخرى هو الطريق للوظيفة وأصبح الشكل معيار قبول ونجاح المضيفات والسكرتيرات والممثلات وحتى مديرة التسويق وموظفات الاستقبال،

وأكثر الشركات والبنوك والفنادق تؤمن أن الجسد المعيار الحقيقي لاختيار المرأة كعاملة، وليس روح المرأة أو إنسانيتها أو عقلها أو مؤهلاتها العلمية والخبرات.

وتعد الأخبار الصناعية وما تبثه من محطات تليفزيونية فضائية أكثر وسائل العولمة انتشاراً، وهي بكل ما تحمله من إعلام وإعلان لا تزال متهمة بتكريس المفهوم القديم للمرأة، والتمسك باستخدام الشكل دون المضمون، إلا أن خبراء الإعلان يدافعون عن استعمال إمرأة تشبه إلى حدٍ ما المتلقي في إعلاناتهم فتتعاطف معها كون المرأة جزء من المجتمع وأكبر مستهلكة فيه..

ورغم أن المرأة تسعى منذ عهود طويلة إلى دفع الرجل لعدم اختزال كيانها كله في جسدها، وتعمل جاهدة حتى يتم التركيز على عقل وفكر وثقافة وهوية وإنسان داخل كيانها، إلا أنها كانت الضحية الأولى للعولمة من خلال استغلال المرأة على جبهتين-إذا صح التعبير- أو على شاكلتين، من ناحية أنها تُستعمل أداة لتسويق المنتوج، فنلاحظ مثلاً في أغلب إشهارات السيارات وقوف امرأة في كامل زينتها بجانب المادة المعلنة، كاسية- عارية- ترقص بتغنج حتى يمكن تسويقها للمنتوج، ولا مبرر لوجودها في الإعلان إلا جانب الدعاية.

الجانب الآخر لتوظيف جسد المرأة هو استغلالها كسوق مفتوح دائماً من خلال إمبريالية نفسية تستطيع أن تشتغل على وعي الإنسان وعلى عاطفته وتولد لديه عبر الإعلانات والقصف الذهني اليومي المتواصل حالة من القلق وعدم الرضا ومن عدم الالتزام إلا إذا اقتنى سلع بعينها، واستطاعت الشركات المتعددة الجنسية أن تخلق للصناعات رساميل تبلغ بلايين الدولارات تتمركز حول الشامبوهات ومساحيق التجميل وعروض الأزياء وغيرها....الخ.

خبراء المعلوماتية يؤكدون أن إحدى الجوانب السيئة للإنترنت أنه فتح آفاقاً جديدة لمعرفة المرأة غير أنه-وعلى النقيض- أشاع مفهوم المرأة الجسد في العديد من المواقع الإباحية (الأفلام، الصور) التي كانت موجودة مسبقاً ولكن الإنترنت فتحت المجال أمامها لتصبح في متناول الجميع.

لعله من الظلم القول أن المرأة ساهمت بالدرجة الأولى بإيصال نفسها إلى ما آل إليه حالها كونها لا تعي تماماً ما يحاك في السوق الكبيرة، وكيف تستطيع من لا مؤهلات لهنّ سوى جسد يملكنّه، يعتقدن سلفاً أن مستقبلهن محدود، وأن من حقهن القيام بعمل نبيل فني، كالسير بطريقة معينة على البوديوم/ مكان العرض مرتديات ملابس معينة..الخ.

وهذا يدخل في تعميم نمط ثقافي جنسوي مصطنع كمدخل وأحد عناصر العولمة الاقتصادية في شقها الثقافي، الجنس كوسيلة للتسويق، تدخل فيه تعرية جسد المرأة ومن ورائها تعرية المرأة من إنسانيتها، واختزال جميع مكوناتها وجميع مواهبها.

وفي ظل العولمة استُغلت المرأة بشكل فظيع كيد عاملة رخيصة، وإذا كان من

المفروض بالعولمة التي تديرها منظمة التجارة العالمية والشركات المتعددة الجنسية ومن يدور في فلكها، أن تجعل من جميع البشر الخمسة مليار ٣٠% قوة عاملة، إلا أن من صالحها أن تكون القوة العاملة كلها النساء لأن تكلفة اليد العاملة أرخص بالنسبة للمرأة، وهو نوع جديد من الرق والاستعباد بأفظع صوره أن تقف امرأة في عنابر وسخة ولساعات طويلة لصنع منتوج ما بأجرٍ لا يتجاوز الدولار يومياً، بينما يروج ذات المنتوج بأكثر من مئة دولار، تماماً كما حدث في مونديال ٢٠٠٢لكأس كرة العالم، بحيث ذكرت مجموعة ريبورتاجات أن الكرات مصنوعة في الباكستان من طرف أطفال وفتيات بالأخص.

وفي المنظور بعيد المدى في قضية المرأة العاملة أنها تصبح غير منجبة، فالمقصود أن يقل عدد السكان المناطق المحيطة بدولة العدو الإسرائيلي، فنشروا مصانع في المناطق المحيطة بفلسطين.

ثم أن هؤلاء العاملات ينتجن ما لا يستخدمن، بل تذهب المصنوعات خارج حدود بلادهن إلى أمريكا وأوروبا و"إسرائيل" وغيرها.. الخ.

بعض أصحاب الدين يقولون أن الأبعاد الحقيقية للعولمة لا تكمن في النواحي الاقتصادية فقط، بل إن القائمون على العالم المتقدم أدركوا خطر سياج أخلاقي يتمتع به العالم الإسلامي، وجعله يتزعم العالم لقرون عدة، وكان له الفضل الأكبر في إسلام الكثير في عصور خلت، فكان لابد من قطع أوتار السياج ومحاولة تدميره خوفاً من تجدد خيوطٍ بثوب من العزة والكرامة، وتلفظ وراءه كل أنواع الاستعباد والإذلال، لفرض إملاءات دولية مسمومة، وكانت المرأة إحدى أهم الأسلحة الفتاكة بما تحمله من فتنة في جسدها لمحاولة زعزعة وتدمير الأخلاق في نفوس أتباعها، فكان لابد من محاولة خلعها وبحياءٍ يغطيها شيئاً فشيئاً حتى تصبح أداة سهلة التحكم بها.

كقوله عليه الصلاة والسلام: ((ما تركت فتنة من بعدي أشد على الرجال من النساء)).

فبدأت الدعوات المتلاحقة من خلال وسائل الإعلام إلى ضرورة تحرر المرأة منتهجةً مناهج متعددة ابتداءً من الدعوة إلى ضرورة خروج المرأة من بيتها بسبب أو بدون، ومروراً بضرورة مساواتها بالرجل مساواةً تحط من قدرها، وتبعدها عن ثقافتها الحقيقية.. الخ.

ليس من المبالغة القول أن الجميع بلا استثناء دخل آلة العولمة دون رحمة حيث بدأ مؤخراً استغلال جسد الرجل أيضاً، محاولة لفربكة تراث جديد للرجل، تحضير الرجل وتجميله، وإخضاعه هو الآخر لعمليات تجميل ووضع الكريمات والجل على الشعر...الخ، وصرنا نشاهد أجساد لاعبي كرة القدم في الملاعب الرياضية كاستعراض معولم لإظهار لاعبين يتقاضون مبالغ مذهلة في إعلانات مشروبات غازية مثلاً.